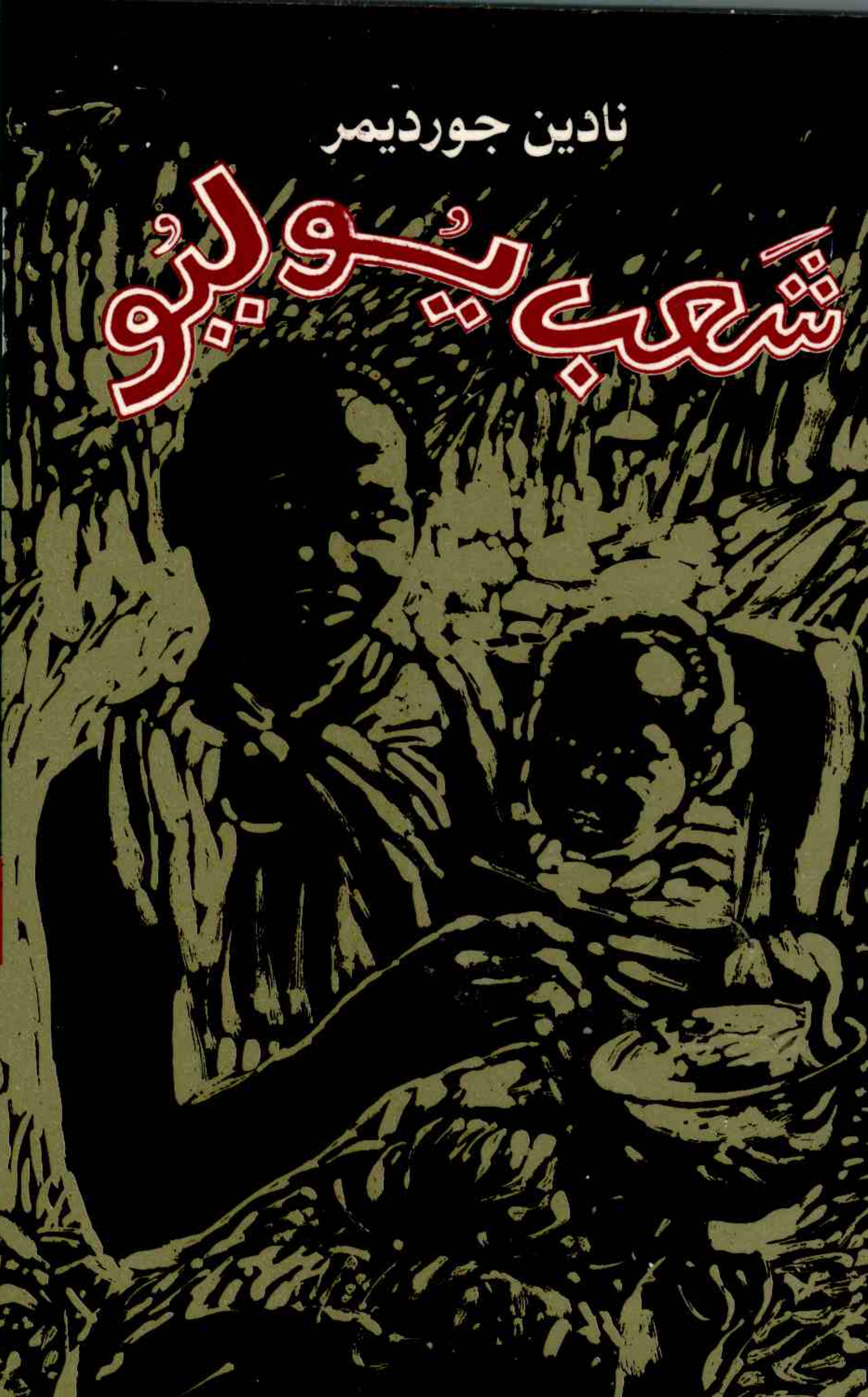
نادين جورديمر

شعب يوليو

روايات جائزة نوبل

5



روايات جائزة نوبل

سلسلة تصدرها

الدار المصرية اللبنانية

المديـــر العـام : **محمـد رشـاد**

رئيس التحريـر : **فتحى العشرى**

الإعداد والصياغة : **محمـد فتحى**

١٦ شارع عبد الخالق ثروت ـ القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة

رقم الإيداع : ٩٤/٣٣٢١

الترقيم الدولى : 2 - 133- 270 -977

الطبعة الأولى : ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤ م

شعب يوليو

JULY'S PEOPLE

نادين جورديمر

نوبل / 1991

ترجمة

الفصل الأول



1

ـ هل تريد كوباً من الشاى ؟

انحنى « يوليو » عند المدخل مبتدئاً ذلك اليوم ، كما يفعل دائماً مَنْ هم على شاكِلَتِه لمن هم على شاكلتهم .

الطرق على الباب . . الساعة السابعة . . فى مقار إقامة مديرى الشركات، وفى غرف الفندق ، وبيوت رؤساء الوردية ، وحجرة نوم السيد . .

صينية فى الأيدى السوداء تفوح منها رائحة الشاى .

الطرق على الباب . . لا وجود للباب . . مجرد فتحة فى جدار طينى سميك ، وكيس مغلق معقود إلى الخلف طلباً لنسمة من الهواء العليل أثناء الليل .

– « بام » أنا أختنق !

صوتها يوقظه من نوم ثقيل مجهد . . لا طرق . . ولا باب . . إنه « يوليو» خادمهم ومضيفهم ، يأتى لهم بالشاى فى كوبين زجاجيين وعلبة حليب وملعقة .

– بدون حليب .

وأنا كذلك . . شكراً .

ألقى الرجل الأسود نظرة على الأطفال الثلاثة النائمين على مقاعد أتى بها من العربة ، وابتسم . .

- إنهم فى أحسن حال . . نعم .

- شكراً يا « يوليو » . . شكراً جزيلا .

عَرَفَتْ « مورين » هذه الأكواخ الطينية المسقوفة بأعواد البوص ، منذ كانت طِفْلَةً لرئيس وردية فى « كراجر بارك » . . إن الوعاء الخزفى المزخرف به قطع البسكويت ، والإبريق الممتلىء بعصير البرتقال كانا من بين الأشياء التى على مائدة الإفطار . . عرف « بام » أيضاً هذه الأكواخ الطينية فى «روندافيل » موطن أجداده من « البوير » .

أغلقت « مورين هيذرنجتون » - من المنطقة الغربية المتاخمة لمناجم الذهب بجوهانسبرج - عينيها على حركة تأرجح العربة على الطريق المحاذى لأمواج البحر المرتفعة ؛ لتروح فى نوم مضطرب متقطع يغشاه توقع هجوم على العربة أثناء سيرها ، وصوت المحرك والإيقاع الرتيب الذى نامت عليه من وقت لآخر خلال ثلاثة أيام متصلة ، وهى قابعة مختبئة فى أرضية العربة .

أصوات تتحدث بلغة لا تفهمها ، ومجموعة من الخنازير تعبر المدخل . . وزوجها « بام » كان مستيقظاً برغم صوت الشخير المصاحب لأنفاسه . . سمعت نفسها تتحدث :

- أين أنا ؟

ما تراه وتحسه لا يزال مرتبطاً بإيقاع حركة سير العربة .

قال :

- خبئها . . وسط الأشجار .

وللمرة الثانية سمعت شيئاً أقرب إلى الهمس :

- ما هذا ؟

لم يجب . . قاد العربة طيلة الوقت . . ثلاثة أيام وثلاث ليال . . إذا كان قد استيقظ ، فهو لا يزال فى حاجة شديدة إلى النوم .

وببطء بدأت تعى ما حولها : الكوخ والسرير الحديدى ، والأطفال ينامون على مقاعد كانت فى العربة . . الأشياء الأخرى الموجودة إلى جانب الحائط تنتمى إلى عالم آخر : جلد بقرة ، مجرفة معلقة بمسمار ، كومة من الخرق والأسمال ، موقد مكسور ، دجاج يروح ويجىء ، لكن الصوت الخافت الذى تسمعه لا يأتى من حركته ، ربما كان صوت فأر أو أرنب . . الذباب يحطُّ على أعين وأفواه أطفالها ، حيث كانت رائحة القىء والقذارة من تنبعث المكان .

2

العربة « كارافان » من النوع الذى تفضله عائلة بيضاء من جنوب إفريقيا لتقوم بأعمال لا يمكن لعربة المدينة القيام بها ، فى يوم ميلاده الأربعين قام «بام » بطلائها باللون الأصفر ؛ حتى يمكنه استعمالها شتاءً فى رحلات صيد بالأدغال إلى عمق مائتى كيلو متر ، وفى إجازات نهاية الأسبوع . . قبل ولادة الأطفال كان « بام » يأخذ « مورين » إلى رحلات صيد بعيدة مرة إلى «بوتسوانا » ، ومرة أخرى إلى « موزمبيق » قبل أن تستقل عن النظام البرتغالى .

شراء العربة كان للمتعة . . كالمتعة التى يجدها البعض فى اقتناء النساء . . عندما أحضر « بام » العربة إلى المنزل ، شىء ما فى ملامح وجه زوجته جعله يدافع عن شقرائه الجميلة التى تقاوم حرارة الجو بلونها الأصفر البهيج . حول العربة وقفت الزوجة والعائلة والأطفال سعداء كما لو أن امتلاكهم لأى شىء آخر لن يجلب لهم مثل هذا القدر من السعادة . ابتسمت إليه الابتسامه ذاتها التى تمنحه إياها عندما تندلع رغبته فيها وتتركه يفعل ما يريد .

كلما اختلفت الظروف والملابسات يحدث التحول فى الأحياء والأشياء والرهان على البقاء بطبيعته لا يمكن الكشف عنه قبل أن تسفر الأحداث

عن وجهها . كيف للمرء أن يعلم ؟ . . الأحداث المتوالية بالطريقة التى وقعت بها كانت أمراً ليس فى حسبان أحد ، وعلى غير المتوقع منها ، كذلك كانت هوية الأشخاص ممن لهم دور فى الأحداث ، وأيضاً الأغراض المختبئة خلف كل مجموعة من الظروف التى تبدو عادية .

بدأت الأحداث عادية مبتذلة تبعث على التشاؤم . جاءت اضطرابات عام 1980 فى بطء وتثاقل . . إضراب يلى إضراباً إلى أن أصبحت الإضرابات والانفجارات وإطلاق الرصاص من مفردات الحياة اليومية . وبينما كانت الحكومة فى محاولات مستمرة لتقديم تنازلات لاتحاد العمال السود على شكل كلمات متقنة الصنع ، تخفى بداخلها قيودًا جديدة ، كان العمال السود يكابدون الجوع والغضب والبطالة . . .. والمتاجر والمصانع تُشْعَلُ فيها النيران .

لا أحد يدرى ما الذى يجرى خارج نطاق المنطقة التى يعيش فيها : من أحداث شغب ، وإشعال النار فى الممتلكات ، والاستيلاء على مقار الشركات الكبرى ، وانفجارات فى المبانى العامة ، والرقابة على الصحف ، والشائعات ، وما يجرى على الألسنة هو كل ما تبقى للإذاعة والتليفزيون من مصادر تستقى منها المعلومات حول الثورة التى شملت كل أرجاء البلاد ، وظل هذا الوضع وقتاً طويلاً .

محاسب البنك الذى قام « بام » بعمل تصميم لمنزله نَقَلَ له أن البنك بصدد وضع قيود على سحب العملاء لودائعهم ، إذا لم تَبْدُ فى الأفق أية علامة تشير إلى تحسن الوضع المتردى . سحب « بام » خمسة آلاف « رند » عملات ورقية ، كذلك « مورين » سحبت 1750 « رند» رصيدها فى حساب

التوفير الخاص بها ، وحملته إلى المنزل داخل حقيبة المشتريات مع بدلة «بام» التى أحضرتها من محل التنظيف بالبخار .

لم تغلق البنوك أبوابها . . السود الذين عانوا من نقص فى السلاح وكُفوا عن مواجهة الرصاص بالعصى والحجارة ، قد تم كبح جماحهم بواسطة القوات المحلية ، وتعزيزات من المهاجرين الروديسيين البيض ، ومن المرتزقة البيض المحمولين بالطائرات من زائير وأوغندا .

أطفال المدارس مكثوا فى منازلهم ، وإلى الشارع والحديقة خرجوا للعب والعراك . . محال المشروبات الكحولية فجأة جاءتها زجاجات النبيذ والبيرة التى أُرسل فى طلبها قبل أسابيع . . وللمرة المائة ، منذ حرائق الخمسينيات ، ومنذ « شاربفيل » و « سويتو » 1976 ، ونهر « إلسى » (1980) ، يبدو الأمر وكأن كل هذه الاضطرابات ليست إلا محاولات للتنفيس عن الغضب .

السأم هو الذى قاد تفكير « بام » و « مورين » إلى أنهما يعيشان طيلة حياتهما فى مكان واحد ، ووجَدَا نفسيهما فيه من البيض المنبوذين فى قارة سوداء ، وإلى أنه لم يعد هناك وقت لتصحيح ذلك . . فى شبابهما فكرا فى السفر والعيش حياة جديدة فى بلد آخر . ذلك كان فى وقت يمكنهما فيه نفض أيديهما من وضع قائم ، السود فيه منبوذون ، والبيض يتمتعون بكل الامتيازات . . أوْهَمَا نفسيهما بأن وطنهما هنا وليس فى أى مكان آخر . . ومع مرور الوقت عرفا جيداً أن السبب هو أنهما لم يستطيعا الخروج بأموالهما . . مدخرات « بام » واستثماراته المتزايدة ، مجموعة الأسهم التى ورثتها « مورين » عن جدها لأمها ، الفرصة غير المواتية وغير المتاحة لبيع المنزل ، وأحداث الشغب هى جزء من حياة كل يوم .

مرة أخرى - بعد المرة المائة - السود تغلق عليهم أبواب السجن . الزجاج المهشم يتم إزالته من أمام المبانى العامة والمحال التجارية ، إصلاح الخطوط التليفونية ، تأكيدات الراديو والتليفزيون أنه قد تم إحكام السيطرة على الموقف . . « بام » و « مورين » أدركا أنه من الحماقة ترك أموالهما المسحوبة من البنك فى المنزل ، وكانا على وشك إيداعها ثانية فى البنك .

حدث تحول فى مسار الخرافة والحكاية الرمزية الدينية والمثل . . . أصبح محاسب البنك هو الطائر الأسطورى فى الحكايات الفولكلورية الإفريقية ، ينتقل من مكان إلى مكان محذراً من الخطر القادم . . لكن التجاهل كان من نصيب رفرفات أجنحته وصرخاته .

العربة « الكارافان » التى استقدمت للاستمتاع بإجازات نهاية الأسبوع وبرحلات صيد فى الأدغال ، تحولت إلى عربة تشق طريقها بصعوبة بعيداً عن الانفجارات وطلقات الرصاص ، وقذائف صواريخ تطلق على الطائرة «البوينج » الحاملة لهؤلاء الذين يحاولون الرحيل من مطار « جان سْمتس » .

الطاهية « نورا » ولت الأدبار ، والخادم الذى يعيش فى فناء المنزل منذ زواجهما ، ويحصل منهما على راتب طيب ، وله كسوتان : واحدة لأعمال المنزل ، والأخرى بيضاء يرتديها عند تقديم وجبات الطعام ، وله يوم إجازة فى الأسبوع يسمح له فيه بزيارات وباستقبال الأصدقاء . . . هذا الخادم الذى تحول إلى ذلك الشخص الذى اختير لأن يضعوا أرواحهم بين يديه . . . هو الأسود ، الأمير المنقذ المخلص ، « يوليو » .

أحضر « يوليو » وعاءً من الزنك يتسع لاستحمام الأطفال واحداً بعد الآخر ، وفوق رأسه علبة من الصفيح بها ماء ساخن . . قامت هى على

نظافة الأطفال ، وللمرة الأولى فى حياتها اكتشفت أنها اشتمت رائحة عفنة بين ساقيها ، وطلبت من أطفالها الانتظار بالخارج . حلت عقدة كيس القماش المعلق ليغطى فتحة المدخل ، وشرعت فى تنظيف جسدها بالماء المتبقى من اغتسال الأطفال . وقام زوجها بالاغتسال فى مياه النهر التى تحمل خطر العدوى بالبلهارسيا ، وهو الخطر الذى يتهدد كل الأنهار التى تصب جهة الشرق .

عاد « يوليو » حاملاً أطباق الثريد المكون من أوراق السبانخ وثمار شجر الببو . لكن ما اعتاد عليه أفراد العائلة من تناول الفاكهة بعد الانتهاء من الطعام أمر لا تفوت ملاحظته على مَنْ تعوَّد مثل هذه الطقوس فترة طويلة شاركهم فيها فى العيش .

كان مرتدياً قميصاً كالح اللون ، وسروالاً قديماً ، تركهما فى الكوخ ليرتديهما عند عودته فى أيام الإجازة التى يحصل عليها مرتين فى العام ، يروح « يوليو » ويجىء عبر فتحة الكوخ ، بطريقة المشى ذاتها التى اعتادها لمدة خمسة عشر عاماً فى منزلهم ، الذى خدم فيه بفهم لاحتياجاتهم وميولهم ، جاعلاً من نفسه طوع نظام حياتهم وطلبات الأطفال التى لا تقف عند حد .

- سوف نعد الطعام لأنفسنا يا « يوليو » .

الضيف يظهر احتجاجاً عند أول مشكلة . هو وهى يحاكيان هؤلاء الزوار الذين قدموا إلى منزلهم وعند رحيلهم أعطوه بقشيشاً .

ذهب ليحضر أخشاباً لـ « بام » وعاد عند حلول الظلام غير واثق من قدرتهم على رعاية أنفسهم :

- هل تريد أن أشعل لك النار الآن ؟

كان يحمل علبة من الصفيح ممتلئة بالحليب ، وإلى جانبه طفل صغير . فى الصباح الباكر قام بطرد أطفال سود فضوليين بعيداً .

- هذا هو ثالث أطفالى حسب تاريخ الميلاد . . فى سن « فيكتور » تقريباً . يوم ميلاد « فيكتور » فى الواحد والعشرين من يناير . . وهذا جاءت ولادته فى يوم الكريسماس .

الأطفال البيض شاهدوا من قبل صورة لأطفال الخادم كانت فى حافظته الجلدية . نظروا إلى الطفل الأسود كما لو كانوا ينظرون إلى محتالٍ صغير .

- حليب ماعز . . هذا الحليب الذى نشربه ، لا أعرف إذا كانت «جينا» سوف تحبه . . « جينا » من الصعب إرضاؤها . لابد من أن نغلى الحليب .

أغمض عينيه نصف إغماضة . لعق بفمه الحليب العالق بشاربه ، وشرع فى تقديم نصائحة وتحذيراته التى تبتعد بمسافة عن التعليمات الصحية السليمة ، تماماً كالمسافة نفسها التى تفصل بين الماعز وعلبة الصفيح الصدئة هنا ، وبين زجاجات الحليب المعقم هناك .

فى الليل انتقلت العربة من مكانها بين الأشجار إلى حيث مجموعة من الأكواخ المهجورة ، بعيداً عن أكواخ عائلة « يوليو » . لم يستخدم « بام » الأنوار الأمامية ، وكان « يوليو » دليله طوال السير فى الظلام ، كما كان يفعل فى مناطق معينة أثناء الرحلة لتفادى جولات قوات الدورية .

معرفة « يوليو » بنقاط توزيع البنزين خلف « الجراجات » والمجمعات السكنية جعلهم يواصلون سيرهم ، على الرغم من أن البنزين المتبقى بالعربة لا يكفى إلا لقطع أقل من نصف مسافة الطريق ، فى كل وقت كان يذهب

« يوليو » ومعه أوراق مالية من حقيبة المشتريات المصنوعة من البلاستيك ، يعود وفى حوزته البنزين والماء والطعام .

إنه عمل لا يمكن وصفه إلا بالمعجزة ، إنه معجزة ، وعلى المرء أن يعلم من آلام ومعاناة القديسين أن المعجزة تعنى الشىء الخارق للعادة .

كيف لمثل ذلك الحمل من البشر ، بأقل القليل من المتاع ، أن يأمل فى الوصول إلى المكان الذى يقصدونه ؟ هذا الشىء الذى كان من المستحيل أن يحدث من دقيقة لأخرى .

قال « يوليو » :

- يمكننا الذهاب إلى قريتى .

وقف « يوليو » فى غرفة المعيشة التى لم يسبق له الجلوس فيها ، والتى ما كان وقوفه فيها يزيد على أن يقول : « يمكن أن نشترى قليلاً من البارافين » وذلك عند تواجد بقعة تلوث الأرضية ويلزم إزالتها .

هو الشخص الذى كان عليه أن يقدر ما يجب عمله ، فهم لا حول لهم ولا قوة داخل منزلهم . . ولما كان الأمر كذلك فقد وضح له أن مقاليد الأمور كلها فى يده . . وكان ترتيب الأوراق بهذا المنطق من الأشياء غير المتوقعة . لا شىء آخر كان يستطيع « يوليو » أن يفعله ، فقط المستحيل . لقد مكثوا طويلاً جداً .

كيف لم تتحطم العربة وهى تندفع بقوة عبر الأشجار الكثيفة وحقول الذرة والبندق ، وخلال السدود والقنوات ؟! كيف عثروا على طريقهم ؟ . استمرت الرحلة ثلاثة أيام وثلاث ليال ، فى حين أنه كانت تستطيع العربة

أن تقطعها فى يوم واحد تحت ظروف عادية . لكنه « يوليو » . . « يوليو » الذى يعرف كل شبر فى طريق طوله ستمائة كيلو متر كان قد قطعه سيراً على الأقدام من قبل . أشعل نيراناً لكى يُبعد الأسود بعيداً عن مسار العربة فى الليل عند المناطق المتاخمة للغابات وعند مرورهم « بكراجربارك » التى بحث فيها عن عمل عندما جاء لأول مرة إلى المدينة .

- لا يمكن رؤية العربة .

كانوا يرقبون طائرتين تحلقان على ارتفاع كبير . « بام » مطمئن إلى أن العربة لن تلفت انتباه قذيفه ضالة من طائرات الثوار السود الطالعة من قواعدها فى « موزمبيق » لاستطلاع أية إشارة قد تكشف عن تواجد قوات عسكرية من البيض .

موطن « يوليو » لم يكن قرية ، بل هو تجمع سكنى من بيوت طينية يقطنها أعداد من عائلته الممتدة الفروع . من المسلم به أن ما أقدم عليه «يوليو » مخاطرة . إذا استطاع أن يضمن قبول عائلته لذلك التواجد الغريب لعائلة بيضاء بينهم ، وأن يحملهم على التزام الصمت ، فهو لا يمكنه أن يمنع الآخرين الذين يعيشون فى الجوار من اكتشاف عربة لرجل أبيض ، ونقل تلك المعلومة إلى قوات الدورية السوداء . . هذا إذا لم يقوموا أنفسهم باتخاذ اللازم .

انفجر « يوليو » فى الضحك لجهلها ما يتمتع به من مسئوليات وسلطة .

- على أية حال ، لقد أخبرتهم جميعاً عن العربة .

- عَمَّ أخبرتهم ؟

كانت على ثقة من دهائه وحُسن إدراكه للأمور طيلة سنوات عمله

لديها . غالباً ما كان « بام » فى استطاعته متابعة إنجليزيته المكسرة ، لكن «يوليو» وهى كان يفهم أحدهما الآخر جيداً .

- أخبرتهم بأن يتركوا هذا الأمر لى .

انفجر « بام » ضاحكاً .

- من يصدق ذلك ؟

- هم يعلمون . . يعلمون ما يحدث . القلاقل فى المدينة . البيض يُطْرَدُونَ من منازلهم ، ونحن نأخذ ، أليس كذلك ؟

- لكنك لا تعرف القيادة .

كانت قلقة على سلامتهم .

- كيف يعرفون أننى لا أقود العربة ؟ الجميع يعرف أننى قضيت خمسة عشر عاماً فى المدينة ، وأعرف الكثير جداً من الأشياء .

كان ذلك قبل أيام من التوقف عن النظر إلى العربة ، باعتبارها المرجع والدليل الذى يدل على وجودهم . ما زال المتبقى من معلبات الطعام فى العربة ، كذلك صندوق « فيكتور » الذى يحتوى على حلبة سباق السيارات ويعمل بالكهرباء . لا مكان فى هذا الكوخ لأى شىء ، لكن « فيكتور » لا يكف عن طلب إحضار حلبة السباق .

- هذا يعنى أنك سوف تفكها وتعيد تركيبها ثانية .

كان من عادته الوقوف فى مواجهتها بطلباته ، وهى تتحرك من حوله .

- « فيك » . . لا يوجد تيار كهربائى هنا لتشغيلها .

- أريد أن أطلعهم عليها .

- من ؟

الأطفال السود الذين يراقبون الكوخ من بعيد ويخترقونه بأعينهم ، وترمقهم هي بنظرات كالحجارة ، هاهم يجدون طريقاً .

- لكن أخبرهم ألاّ يلمسوها . . لا أريد لأشيائى أن تتكسر . .

يجب أن تخبرهم .

- أخبرهم ؟ إنهم لا يفهمون لغتنا .

« رويس » الأصغر يلح فى طلب « كوكاكولا » .

اذهب إلى المتجر وأَحضِرْ بعضاً منها .

وضعت علبة الصفيح بها ماء النهر لتغلى على النار .

- إنه من الجنون أن ندعهم يشربون مباشرة من النهر . . سوف يمرضون « بام » فى اندفاعة غضب مفاجئة :

- من المستحيل إيقافهم . . إنهم يشربون الماء أينما وُجد .

- ماذا نفعل إذا مرضوا ؟

هو لم يجب ، وهى لم تتوقع منه ذلك .

وظل السؤال بينهما من غير إجابة ، وكذلك الأسئلة الأخرى التى لا يمكن الإجابة عنها . . . لكنهما فى قرارة نفسيهما يدركان أن من حسن حظهم أنهم أحياء .

المقاعد لم تعد تنتمى إلى العربة بعد أن أصبحت ضمن أثاث الكوخ . . فى الخارج – وفى فترة ما بعد الظهيرة – سحابات رمادية مضيئة ، تحتها وعلى الأرض جلست « مورين » كما يفعل الآخرون ، وإلى الجانب الآخر من الوادى خلف الساحات المزروعة بنبات « الفربيون » وبالأشجار الشائكة حيث يرعى الماعز ، كانت تعرف أن العربة هناك . . هى سفينتهم التى أقلتهم إلى هذا المكان البعيد ، وألقت مرساها إلى حيث مساحات داكنة من العشب الأصفر . . . سفينة يدب فيها الصدأ والبِلَى ، إذا لم تبدأ سريعاً رحلة العودة .



الفصل الثاني

1

دولاب خشبى مصنوع من ألواح الصناديق الخشبية ، على الهيئة نفسها التى نراها فى منزل رِيفِىٍّ . أرضية الأرفف مغطاة بأوراق تتدلى عند الحافة فى أشكال زخرفية تزينها فراغات متكررة من وحدات المثلث والدائرة . أكواب زجاجية وأطباق فوق أحد الأرفف .

قدمها « يوليو » إلى زوجته . . وجه أسود فاحم صغير مغلق . فخذان كبيرتان وعجيزة ضخمة كوسادة عليها تريح جسدها ، فى جلستها بأرضية الكوخ . تتحول بنصفها الأعلى يمنة ويسرة ، آخذة الغلاية من فوق كومة القش المشتعلة بالموقد لتصب الشاى فى وعاء خزفى تمسك به عجوز . . . وتعدل من وضع زجاجة يتغذى منها طفل تعدى مرحلة الفطام ، يغالب النوم على فخذها . قطّبت جبينها عند سماعها صوت « يوليو » ، فى صوت خفيض غير واضح غمغمت محيية :

– تقول إنها مسرورة لوجودك فى بيتها ، وكان يسعدها أن تراك منذ فترة طويلة هنا حيث شعب « يوليو » .

لم تقل شيئاً . . مدت « مورين » يدها مصافِحَةً زوجته والعجوز التى ربما كانت أُم « يوليو » أو أم زوجته . العجوز ترتدى قرطاً تتدلى منه حلية مذهبة ، وعقداً من أحجار زجاجية حمراء ، وكانت تسأل « يوليو » بدمدمة

غليظة متحشرجة تصدر من الحلق قبل كل سؤال ، ولفتة من رأسها ، فى حين كانت المرأة البيضاء تبتسم وتحنى رأسها محيية .

آخرون كانوا فى الكوخ ، امرأة شابة ، وفتيات صغيرات ، أخته ، أخت زوجته ، واحدة من بناته. . . قدمهن إليها بِصِلَةِ القرابة التى تربطهن به ، وليس بأسمائهن . الصغير الذى آثر الاختفاء ، كان آخر طفل تركه فى أحشاء زوجته فى واحدة من إجازاته بالكوخ ، وخرج إلى الحياة وهو غائب عنه ، كما هو الحال مع بقية أطفاله .

طالما أعطته « مورين » هدايا لإرسالها لعائلته بالنيابة عنها مع كل خبر بولادة طفل له ، وإلى هذه الزوجة ، زوجة « يوليو » التى لم ترها ولم تتخيلها قط ، أرسلت هداياها للأطفال وقميصَ نوم وحقيبة يد لها ، اعتقدت «مورين » أنها ذات فائدة لأية امرأة ، أياً كانت . . وعند عودة « يوليو » من الإجازة كان يُحضر معه فى المقابل حقيبة من القماش كهدية من امرأته وقريته المجهولتين لها . . فى واحدة من هذه الحقائب حملت مورين أوراقها المالية من البنك .

عاملة النظافة بمكتب كبير فى المدينة ، وهى المرأة التى يستقبلها « يوليو» فى غرفته يوم الإجازة الأسبوعية ، كانت ترتدى فى إجازتها ثوباً من قطعتين ، وتكوى ملابسه بمكواة « مورين » التى تتبادل معها الحديث عند التقائهما فى فناء المنزل . عادة كان موضوع حديثهما حول ابنها الذى يدرس فى « سويتو» على نفقتها . مرة واحدة وضعت امرأة المدينة يدها أسفل صدرها فى حركة تعلن عن اقتراب آلام المخاض . انتهى كل ذلك بعد أن أجرت عملية جراحية فى العيادة الطبية جعلتها عقيماً . لونها الأسود وإنجليزية المدينة

وتعقد مفرداتها ، كان لهما صلة وثيقة بهذا النوع من الحياة التى عاشتها .

كان الوقت أول النهار ، لكن النسوة فى كوخهن كُنَّ يغالبن النعاس ، كما لو كُنَّ فى آخر الليل . . وعلى السرير الحديث المغطى ببطانية ذات نقوش مربعة الشكل وأهداب جلست واحدة من الفتيات الصغيرات تضفر شعر فتاة أخرى أحنت رأسها . ربما كان مَنْ فى الخارج منذ انبثاق أول ضوء يحمل الأخشاب أو يعمل فى الحقول . لم تكن « مورين » فى حالة من الوعى تسمح لها بمعرفة المكان والزمان ، وموقع اليوم من بقية الأيام .

2

– لماذا قَدِمُوا إلى هنا ؟ . . لماذا نحن هنا ؟

زوجته قبلت قوله عندما وصل تلك الليلة فى عربة رجل أبيض، وخمسة وجوه بيضاء تتحرك فى الظلام . أتت لهم بسرير وموقد غازى، وشاهدته فى الصباح وهو يأخذ لهم الأكواب الزجاجية التى أحضرها لها من المكان الذى يعيش فيه حياته الأخرى . . أمه أعطتهم كوخها الذى شيدت جدرانه من جذوع الأشجار والطين . . المرأتان كانتا تنفذان أوامره بغير نقاش . . لكن ذلك لم يكن نهاية الأمر . . عرف أن الأمر لن يقف عند هذا الحد .

– أنتِ لا تفهمين . . ليس هناك مكان آخر يذهبون إليه . . قلت لك . . .

– البيض هنا ؟! ألم تخبرنا عدة مرات كيف يعيشون هناك ؟ حجرة للنوم، وأخرى للجلوس ، وحجرة للكتب . . لا أعرف كم مرة تحدثت عن حجرة بها العديد من الكتب . . مئات المرات ، وماء ساخن ، وأضواء . . كل هذه الأشياء التى لم أرها ، وأطفالى لم يروها . . حجرة للاستحمام . . حتى أنت لك حجرة وحمام فى فناء منزلهم . . لم تقم بغسل ملابسك ، فهناك ماكينة فى حجرة أخرى تقوم بذلك . . والآن تقول لى ليس هناك مكان آخر؟!

استمعت الفتيات الصغيرات الموجودات دوماً فى كوخها إلى هذا الحديث .

- كان عليهم أن يخرجوا . . أن يذهبوا . . إنهم يحرقون تلك المنازل . . تلك المنازل الكبيرة . . لا يمكنك تخيل هذه المنازل . البيض يُقتلون فى منازلهم . . أنا رأيت هذا . . النار تندلع فى كل شىء ، فى الحوائط والأسقف .

- معه بندقية . . الأطفال رأوها وهو يحتفظ بها فى سقف الكوخ .

- بندقية واحدة لا تفيد فى شىء مع تلك القلاقل والاضطرابات . . إذا لم تكن قد عايشت ما يحدث هناك ، فلن يمكنك فهم حقيقة الأمر .

يَدَا أُمه تهدأ لِلَحْظة .

- البيض لهم البيض أمثالهم فى مكان ما . . أليسوا يعيشون فى كل مكان فى هذا العالم ؟ . . « جير مسستون » ، و « كيب تاون » . أنت عشت فى أماكن كثيرة يا بنى . . أليسوا يذهبون إلى أى مكان يريدون ؟ . . إنهم يستحوذون على النقود .

- الشىء نفسه فى كل مكان . إنهم يطردون البيض من منازلهم ، والبيض يخوضون المعركة معهم ويحدث الشىء نفسه فى كل المدن . أين يمكنه الفرار بعائلته ؟ أصدقاؤه أيضاً يفرون . إذا هو أراد أن يذهب إلى صديق فى مدينة أخرى ، فلن يجد الصديق هناك . صحيح أنه يستطيع الذهاب إلى أى مكان يحبه ، لكن عند وصوله هناك ربما يلقى مصرعه .

استمعوا إليه ، لا أحد يمكنه معرفة ما إذا كانوا قد اقتنعوا بما يقول .

- كثيراً ما كتبت وتحدثت عن كيف ترعى شئون المنزل ، وتطعم كلبهم ، وقطتهم . فى ذلك الوقت عندما كنت نائماً بالمنزل واللصوص هشموا نافذة إحدى الحجرات . . لا أدرى . . كان قد سافر إلى الخارج . . « أوفرسيز » . . أليس كذلك ؟ .

الكلمة الإنجليزية كسرت إيقاع اللغة التى يتحدثونها . . «أوفرسيز » . . مفهوم الكلمة لم يكن مألوفاً لزوجته مثل غرابة الكلمة على لسانها . . لكنه حمل حقائب السفر ووصلت إليه بطاقات بريدية مرسوم عليها ناطحات السحاب ، وجبال مغطاة بالثلوج ، وأجاب على مكالماتهم التليفونية من بلاد توقيتها الزمنى مختلف .

- هل تعرفين المطار الكبير الذى تقلع منه الطائرات إلى الخارج ؟ لا يعمل . . وقيل إن قذيفة أصابت طائرة البيض الذين يحاولون الفرار .

- من أطلق القذيفة ؟ المواطنون السود ؟ مواطنونا ؟ . . كيف يمكنهم عمل ذلك ؟ .

العجوز نفد صبرها .

- رأيت تلك الطائرات تطير عالياً فى السماء ، حتى تختفى خلف السحاب . . تسمع صوتها بعد أن تكون قد اختفت ولا يمكنك رؤيتها .

- هناك فى « موزمبيق » ، مواطنون حصلوا على بعض الأنواع الخاصة من البنادق والقذائف بعيدة المدى . حصلوا على هذه الأشياء فى « ديفيتون ، » « كوثيما ، » و » سويتو» الآن بالقرب من المدينة . إنهم يسقطون الطائرة ، وتنفجر فى الهواء ، ويموت حرقاً كل الموجودين على متنها .

- ماذا سيفعل البيض بنا ؟ الله يحفظنا .

ابنها الذى شاهد المرأة البيضاء وأولادها الثلاثة يرتعدون من الخوف فى أرضية العربة ، والذى قاد بخطوات أقدامه الوجه الأبيض خلف عجلة القيادة فى طريقة الذى هو الطريق الوحيد ، فجأة أدرك شيئاً لم يكن قد أدركه من قبل .

- لا يمكنهم عمل شىء . . لا شىء بعد الآن .

- المستوطنون البيض . . إنهم أقوياء جداً يا بنى . . أذكياء جداً .

لن تحيط أبداً بالأشياء التى يمكنهم عملها .

كان وهو فى صحبة النسوة كأنه فى محكمة . . اندفعت النساء إلى الخارج يتنفسن هواء حيث الخيول المقيدة بحبال تُشَدُّ إلى الأوتاد ، والدراجات المستندة إلى جذوع الأشجار . الآن يعدن ثانية إلى قاعة المحكمة . زوجته سألت الفتيات الصغيرات عما إذا كُنَّ يرونها ستقوم بعملها دون مياه طول اليوم ، وإلى متى يثرثرن ويتسكعن . إحدى الفتيات كانت أكثر جرأة .

- تاتانى . . هل صحيح أن لك حجرة للاستحمام هناك مثل الحجرة التى لهم..

- نعم .

يضحكن . كيف يمكنهن تخيل مسكنه الذى ليس كبيرا مثل الجراج المجاور ، وداخل حجرته سجادة جميلة مربعة بعض الشىء ، كانت فى الأصل فى حجرة نوم السيد .

- لا يزال البيض فى أحشاء الدجاجة . كانت ستمدنا بالبيض فترة ،

وكان من الواجب - كما قلت لك - أن تذبح الدجاجة البيضاء ذات الساق المكسورة .

المرأة العجوز كانت تصيح من داخل الكوخ :

- ما الذى تريده ؟

- أنت ذبحت الدجاجة التى تعطى بيضا .

- صحيح . . هذه الدجاجة لا تزال صغيرة .

عندما وقفت المرأة البيضاء ومدت يدها ، كانت المرة الأولى التى يلمسن بشرتها البيضاء . . وعندما كانت زوجته تذهب أحياناً إلى القرية مع أم زوجها لتبيع الذرة والمكانس التى تصنعها العجوز بالقرب من السوق الهندى، حدث أن أحد رجال البوليس البيض اشترى منها قناديل الذرة وتساقطت العملات الفضية من بين أصابع يده البيضاء إليها . . لكنها لم تلمس هذه البشرة من قبل .

كانت تجتذبه وتشجعه وتغريه وهى شابة ، لكن بعد سنواته الطويلة فى المدينة كانت طريقتها فى إمالة رأسها جانباً ، تجد الصد والمراوغة والانسحاب داخل الذات .

- الوجه . . لا أعرف . . ليس جميلاً . . كنت دائماً أفكر فى ثيابهن الأنيقة ، والشعر غريب وغير جميل . . ماذا يفعلون حتى يبدوا بهذا الشكل . . لم أتخيلها بهذا الصورة . . المرأة البيضاء الغنية .

- هن مختلفات هناك . . يجب أن ترين الثياب فى دولابهن والكئوس

الزجاجية للزائرين يشربون فيها النبيذ . هنا هم مثلنا تماماً ، لا يمتلكون أى شىء .

بحدة ألقت اللوم على الطفل الصغير كثير الحركة فوق حجرها .. أمسك بِزِبْل الدجاج ولطخ به فمه . بدون تفكير - إلا إدراكها أن الجسد الصغير جزء منها - راحت تمسح عنه المخاط والزبل ، وألقت بالعالق فى أصابعها جانباً .

- النقود ما عادت تأتى كل شهر .

أصبح بغير عائلته البيضاء هناك وبغير المنزل الكبير الذى عمل فيه لديهم .. لن تصل إليها تلك الخطابات التى كانت تأتى منه وهو يعمل مع هؤلاء القابعين هنا .. وليس فى إمكانهم اللحاق به هناك .. ليس فى الحلم .. وليس الآن ، بعد أن شاهدت عائلته البيضاء

3

« بام » يمكنه مساعدة « يوليو » فى إصلاح أدوات الزراعة القليلة التى يمتلكها هو والقرويون فى الجوار . دعامات وحبال تحولت إلى محراث يحتفظ به فى كوخ غير مأهول . . سلاسل ثقيلة مكومة فى الأرضية . . فأس يتدلى من السقف . حبوب عطنة مختزنة فى سلال . فوق حصير كان أحد القرويين يجمع حبوب الفاصوليا الجيدة بعيداً عن الفاسدة . صور ولوحات من حياة الإنسان الأول كما يجب أن يقدمها متحف للتاريخ الطبيعى .

عقد « بام » عزمه على تجهيز صهريج المياه الذى لم يستعمل قط منذ تم سحبه إلى منطقة الأشجار الكثيفة . ضحك « يوليو » ومازحه بضربة خفيفة من يده كما لو أنه « فكتور » بعد أن أتم حمامه الساخن .

- أنا أعنى ما أقول . إذا استطعنا أن نأتى بملء جوال أسمنت يمكننا عمل قاعدة لصهريج المياه فى مكان قريب من هنا . . يمكنك الحصول على مصدر طيب لمياه الأمطار طيلة الشهور الممطرة . . والنساء لن يَكُنَّ فى حاجة إلى الذهاب إلى النهر . . وسوف يكون من الأفضل استعمال هذه المياه للشرب .

لم يكن فى متناولهما ملء جوال من الأسمنت ، لكنهما عملا معاً مثلما

حدث من قبل عندما كان « بام » يجد مساعدة من « يوليو » فى البناء أو فى أعمال الإصلاح التى أُجريت لصيانة حجرات المنزل السبع وحمام السباحة . . استعان « بام » بالأحجار لبناء قاعدة الصهريج ، وحافظ على وجود جهاز الراديو الصغير قريباً منه ، وفى الفترات التى كانت تُقرأ فيها نشرات الأخبار ، تظهر زوجته ليقفا جنباً إلى جنب يستمعان معاً .

كان هناك أكثر من راديو : واحد يجأر بالصوت ، والثانى يثرثر ، وثالث يصطخب بأنغام موسيقا « البوب » ورابع يدمدم فى حيوية من محطة إذاعة تجارية تتحدث بلغات السود . . قارىء أخبار الحرائق والاضطرابات وأعمال الشغب يتحدث بالإنجليزية للزوجين الأبيضين ، لهما فقط . لم يُعلق أى منهما على شىء وكل واحد ينظر فى وجه الآخر ، لكن الشىء الذى يأمل كل منهما أن يحدث هو إصدار قرار جديد مفاجىء يزيل أسباب الخوف ، لكنه لم يظهر .

كان يجرى قتال عنيف حول مطار « جان سمتس » بوسط المدينة تحت قانون الأحكام العرفية ، هدأ الليلة الماضية ، لكن طلقات مدافع الهاون كانت تصل إلى الأسماع . وتقارير المراقبين تقول باستمرار : القتال فى الضواحى الشرقية والشمالية . . الصليب الأحمر أصدر نداءات للتبرع بالدم، مصانع إنتاج الغاز أشعلت فيها النيران التى انتشرت حتى وصلت إلى منازل الضاحية المتاخمة .

ارتفع حاجبا « بام » وهو يحدق النظر فى الوادى الذى يمتد إلى حيث المنزل الذى شيده فى تلك الضاحية الهادئة .

أعضاء الكونجرس الأمريكى طالبوا الهيئات الحكومية هناك بفتح جسر

جوى لنقل الرعايا الأمريكيين . . لم يكن من المعلوم أين يُقام هذا الجسر . . مطارات « كيب تاون » و « دوربان » ، و « بورت اليزابيث » مغلقة ، والموانىء أطلقت عليها القذائف وحُوصرت .

نظرت « مورين » بعيداً إلى ابنها الصغير وهو يقوم بتفريغ السلة الممتلئة عن آخرها بالأحجار ، كتعليمات « يوليو » .

من حسن الحظ أنهم أحياء ، وأى منهما لا يتوقع من الآخر أن يخبره بما سوف يأتى به الغد ، أو بما سوف يفعلان بعد . . قام هو بتنظيم عملية جلب الأحجار للبناء الذى انهار فور الانتهاء منه . هذا هو حالهم هنا . . يعيدون تشكيل مواردهم حسب قانون الطبيعة الذى يدع حوائط الطين تغرق لترجع إلى الطين ثانية ، ثم يستخدم هذا الطيبن من أجل حوائط جديدة .

لا أحد يتذكر من أين جاء صهريج الماء ، و« يوليو » يقول : إنه سوف يسأل العجوز ، لكنه لم يفعل برغم جلوسها خارج الكوخ طيلة النهار على الأرض تصنع المكانس من أعشاب تجمعها النسوة . . صهريج الماء فى مكانه مثل عائلة « سميلز » البيضاء وأولادها .

أكواخ وزرائب ماشية . . أشجار كثيفة استؤصلت جذوعها . . والنهر هناك ، آخر ما يقع عليه البصر . وبعض أشجار متناثرة فى السهل المعشب المنبسط الذى كونته أو أعادت تكوينه تغييرات فى المناخ . وسماء غامضة لا تفصح عن شىء .

مئات من الطرق المجهولة التى لا تنتهى سَلَكَها مهاجرون قدماء قبل عائلة « مورين » التى لن تكون الأخيرة ، ومستوطنات متناثرة أقيمت تدل

عليها نباتات الفربيون ، وسياج من أغصان كثيفة ، وأعشاب ، وماشية ، وحيوانات برية . . وفضاء ممتد خانق .

« رويس » يرأس الجلسة .

- ألا يمكننا الذهاب إلى السينما اليوم أو غداً ؟

وبرغم أن « جينا » و « فيكتور » يعلمان جيداً أن السينما قد تركاها خلفهما، فإنهما لم يقوما بمنع « رويس » من إلقاء الأسئلة ، أو العبوس فى وجهه أو الشجار معه بعد ذلك فى ، الكوخ ، وفوق مقاعد العربة التى تحولت إلى أسِرّة تزخر بالبراغيث التى تلدغ أجسادهم .

لم يكن فى استطاعة « مورين » أن تسير عبر ذلك الامتداد اللانهائى ، غير أنها تتمشى ومعها الكلب حول مجموعة الأكواخ ، ونادراً ما كانت تصل إلى النهر ، لم تكن تعتقد أن فى خروجها مخاطرة ، وأن الأفضل لها ألا تفعل ذلك .

جاء « يوليو » فى طلب ثياب عائلتها ؛ لكى تقوم النسوة بغسلها .

قالت :

- أستطيع عمل ذلك بنفسى .

إن فى حوزتهم القليل من الثياب ، وقد هجر الأطفال أحذيتهم ، فلا مجال هنا لحذاء نظيف لامع أو جورب كل يوم .

لكن « يوليو » وقف وهيئته تدل على أنه يذهب بدون ما جاء من أجله .

- إذن على أن أحمل لك الماء الساخن .

عرفت أنها لا يمكن أن تتوقع هنا تدليلاً .

- هل يمكن لزوجتك أن تفعل ذلك ؟ سأدفع لها .

كان هذا عمل النساء فى بيته . ضحك ضحكة قصيرة وقال :

- يمكنك الدفع .

- والصابون ؟

تحتفظ بقالب من الصابون ، تجففه بعناية بعد كل استعمال ، وتضعه فى مكان مرتفع بجدار الكوخ بعيداً عن متناول الأطفال .

- سأحضر الصابون .

الصابون الذى لم يَنْسَ أن يأخذه من دولاب منزلهم . . ملابسه النظيفة تشى بالصابون الذى اشترته له ولبقية الخدم . . وهو لم يقل شيئاً عن ذلك ، ربما لا يريد الإعلان عن بُعد نظره . . . كانت على وشك أن تسأله ، ولم تستطع .

- أدفع لك .

رزم الأوراق المالية فى هذا المكان مجرد قصاصات من ورق ، لا تعنى بالنسبة لها ثلاجة ممتلئة باللحم ومكعبات الثلج ، لكن هذه الأوراق نفسها لم تكن كذلك بالنسبة للقرويين من مواطنى « يوليو » .

رأت « مورين » كيف أنها و « بام » ، فى الوقت الذى لا يملكان فيه شيئاً غير قصاصات من ورق يعطونها لهم نظير اعتمادهم التام عليهم ، يجدونهم هم يخفون هذه الأوراق المالية فى خرق معقودة ، وأكياس غريبة يحفظونها

حول أجسادهم ، وكان فى استطاعة هؤلاء القرويين التوفيق بين ما هو مجرد وما هو محسوس . و « يوليو » مثله مثل الآخرين الذين ذهبوا بعيداً للعمل ، وكان يبعث بالأوراق المالية لعائلته لوقت طويل . وكان يُحضر معه فى إجازاته على مدى خمسة عشر عاماً أشياء كثيرة تستطيع هذه الأوراق أن تتحول إليها .

كان كوخ زوجة « يوليو » - كوخه - أحد ثلاثة أكواخ لعائلات صغيرة تتفرع من داخل العائلة ، به « زريبة ماعز » وأقفاص للدجاجات مصنوعة من أغصان جافة تُقطع على الأرض وتُشكل فى خطوط متقاطعة ومكعبات . وزريبة خنازير مطوقة بسياج من ركام أشياء ومخلفات : شجر صبار شائك، إطار مهشم من حطام عربة ، رقائق من الصفيح الصدىء ، قوالب من الطين . . . مفردات صورة حياة يومية فى متناول النظر العابر المجرد . تنقلت « مورين » بين مفردات المنظر بغير عمل تقوم به كالآخرين ، وغير قادرة على فعل شىء .

كتاب واحد معها ، كانت قد اشترته منذ سنوات ولم تقرأه . . ربما هذا وقته ، ولم ترد أن تبدأ فى قراءته ، فماذا سوف يحدث عندما تفرغ منه ؟ كتاب واحد لا غير ، إذا هى لم تقرأه فربما يجدون حلاً سريعاً . وإذا شرعت فى قراءته فسوف تجد نفسها عندما تنتهى منه لا تزال حبيسة هنا . طردت البطة التى أحضرها « يوليو » للأطفال بعيداً ، وهى تنظر إلى مساحات العشب والأشجار المتناثرة ، وشرعت فى القراءة ، لكن أَنْ تتخيل كونها فى زمن آخر وفى مكان آخر وفى حياة أخرى مختلفة وهى المتعة التى تجدها فى قراءة رواية - لم تكن ممكنة . كانت هى بالفعل فى زمن آخر ومكان آخر ، ومشاعر وأحاسيس مغايرة تضغط عليها وتملؤها ، مثل شخص يملأ بأنفاسه بالونة .

الآن لم تكن كما كانت . لا قصة خيالية يمكنها أن تبارى ما شاهدته ، ولم تجد له تفسيراً ، وليس فى مقدور أية قصة أن تحول خيالاً ينافس ما مر بها من أحداث وصور .

لا شىء يمتلكونه فى بيوتهم . . عليك أن تمكث فى ظلام الكوخ فترة طويلة حتى تتبين بعض الأشياء الموجودة على الحائط . . فى كوخ الزوجة قطعة نسيج عريضة بيضاء ، وأربطة حمراء شاحبة . فى أكواخ أخرى - حيث لم تتبين « مورين » ما إذا كانت تلقى ترحيباً وهم مختفون ويظهرون طوال اليوم نهاره وليله - لاحظت دائرة وحيدة ملونة تشبه رسماً لعين إنسان . فى كوخ آخر دُعيت لدخوله كان هناك ذيل حيوان وجمجمة لآخر من فصيلة القوارض ، يتدلى من أعواد البوص الجاف . . . ومرآة صغيرة جداً ، لا يخلو كوخ منها ، تتوق إلى شعاع من الضوء وحيد ضال . لا شىء يمكن للمرآة أن تعكسه . فى الكوخ ، قفزت إلى مخيلتها صورة ثور ومحراث وشكل العلاقة بينهما . لاحظت شارة تشبه ميداليات الحرب على يسار المدخل المظلم مثبتة بمسمار . . زُخرفها على شكل صليب أحمر به ندوب ملطخة بالروث ، والحروف المنقوشة على سطحها امتلأت بالصدأ . صاحب الميدالية عامل منجم أسود ، من المرجح أنه نجح فى امتحان علاج الجروح والكسور التى تحدث تحت الأرض . واحد ذهب إلى مناجم الذهب وعاد بهذا التذكار إلى بيته ، أو ربما أرسله ولا يزال هو هناك .

لكن أين مالك المنجم ؟ . . بالقطع لم يعش فى هذا الكوخ . . هو صاحب الممتلكات والثروات . ذهب عامل المنجم ليعمل بعيداً أو مات . . طواه النسيان ، وبقيت الشارة المعلقة بمسمار فى جدار الكوخ تحيى ذكراه . منذ وقت طويل جاء إلى المناجم عمال من الأنحاء البعيدة . . جاءوا منذ أن

وجدت هذه المناجم وعلى السطح الصدىء للميدالية قرأت « بوس بوى » .

● ● ●

رئيس الوردية الذى له كل التقدير وعلو المنزلة يفاخر برئيس عماله «بوس بوى » ومع كل رئيس وردية جديد ، يتم تجنيد بعض العمال المهاجرين من القرى والأكواخ للعمل بعقد مدته تسعة أو ثمانية عشر شهراً لدى صاحب المنجم الذى يقطن المنطقة الغربية ، وبناته الصغيرات يكبرن طامحات إلى أن يصبحن راقصات باليه .

تلميذه بيضاء بالقرب من السوق التجارى عند مفترق الطرق تلوك قطعة لبان فى فمها ، وتتحرك على إيقاع لحن من الألحان . وعلى مسافة خطوة منها امرأة سوداء فى منتصف المسافة بين مرحلة الشباب والمرحلة التى تتسم بثقل فى الثدى والأرداف وبساق مكتنزة . المرأة السوداء تلوك قطعة لبان فى فمها أيضاً ، وقبعتها الصوفية تغطى إحدى أذنيها ، وتحمل فوق رأسها حقيبة مدرسية مكتوبا عليها بالأزرق « مورين هيذرنجتون » .

عندما تشرع المرأة السوداء فى عبور إشارة المرور فجأة تحول الضوء إلى الأحمر . تقبض التلميذة البيضاء على يدها لتوقفها وتظل ممسكة بيدها فى انتظار تغير الضوء ، ثم يعبران معاً فى مرح . « ليديا » فى غير حاجة إلى يدها الأخرى لتثبت الحقيبة الثقيلة . الاثنتان تشاهدان كذلك عند مفترق الطرق وفى الطريق المختصر الموصل للمنجم والمار بشجيرات متناثرة - (هذا الطريق أصبح مؤخراً منطقة صناعية . . بها مصنع للصناديق المعدنية . . ومحطة لإنتاج شرائح البطاطس الجافة) - وبالقرب من منازل رؤساء الوردية التى تقع خلف منزل « الابداع » الذى تُعقد فيه دروس البالية .

« ليديا » تحمل معها مفتاح الباب الخلفى للمنزل . . وزوجة رئيس الوردية تعمل فى مكتب سمسار أراض وغير موجودة بالمنزل طوال اليوم . . وتذهب « ليديا » إلى السوق لتأتى بما تحتاج إليه ، وتتحدث مع من يقابلها فى طريقها من السود ، وغالباً ما تقابلها « مورين » مصادفة هناك وهى فى طريقها إلى المنزل آتية من المدرسة . تتوقع « ليديا » مقابلة « مورين » ، ربما وهى تشرِع فى الذهاب إلى السوق فى الوقت الذى تنزل فبه « مورين » من أوتوبيس المدرسة . . مرة تقابلتا فى وَضَح النهار ولم تكونا فى عجلة من أمرهما . . جلست « ليديا » على حقيبة « مورين » واستمرت فى حديثها الذى بدأته قبل ظهورها . تذهب « مورين » إلى المتجر اليونانى لتحضر زجاجة « كوكاكولا » كانتا تتقاسمانها » أحياناً ، وهما ترسلان ضحكات عالية، وعندما ترجع « مورين » من المدرسة مع زميل لها خلفه فوق الدراجة– بدلا من الأوتوبيس - كانت تطلب من « ليديا » عدم إخبار مَنْ فى المنزل بذلك .

وكانت ترد على ذلك قائلة :

– عزيزتى ، كيف يمكننى أن أخبرهم ؟! أنتِ صديقتى الحميمة ، أليس كذلك ؟

فى أحيان أخرى لا يكون مزاج « ليديا » معتدلاً ، فتجرى مشاجرات ومعارك بسبب المراهنات والجمعية المصرفية التى تشترك مع أعضائها فى دفع مبلغ من النقود كل شهر ، وتذهب الحصيلة لعضو بعد آخر شهراً بعد شهر حسب الترتيب المتفق عليه .

– تلك المرأة قالت لها : عندما يكون صندوق الجمعية معك ، لماذا لا تقومين بصرف النقود بعد تحصيلها مثل الآخرين ؟

يعتدل مزاجها فتتحول إلى ناحية الفتاة قائلة .

- « مورين » والدك على وشك أن يمر ، هل تريدين أن تخسرى هذا الشىء ثانية مثل آخر مرة : الفانوس الذى أخذته من ورشة الجراج للعرض المسرحى فى المدرسة . . لماذا تأخذين الوسادات من فراشك وتَدَعِين أصدقاءَك يلوثونها على العشب ؟ . . والدتك سوف تصرخ فى وجهى عندما تلحظ ذلك عند الغسيل . . « أقدام الكلب أيضاً » ؟ .

ردت عليها قائلة :

- حبيبتى لاتقلقى . . سوف آخذها ، إن الكلب أتى وقفز فوق سريرى . . سوف أرجع كل شىء مكانه . . أعدك .

فى تَمَلّق تتعلق بعنقها الذى كان أقل سوادًا من بقية جسدها . . (لكن كيف تبدو عارية . . هى مفرطة فى الاحتشام . . لم تظهر من جسدها أثناء ارتدائها لثيابها إلا القليل) . العنق تفوح منه رائحة شواء السمك . . وأثر من رائحة ترتفع من عرق قدميها فى « شبشب » البلاستك . . فى العنق الممتلىء ثلاث سلاسل من الخرز . . كانت امرأة فى أواخر العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات .

بعد ظُهر أحد الأيام التقط مصور فوتوغرافى صوراً لـ « مورين » و «ليديا» شاهَدَتاهُ وهو يتراقص من حولهما على قدمين منحنيتين لكى يضعهما داخل إطار المنظر هناك فى السوق التجارى ، وهما تعبران الطريق ، وبعد أن انتهى من التقاط صوره جاءهما ليسالهما إنْ كانتا لا تُمانعان . بادرت « ليديا » ووضعت يديها حول وسطها من غير أن تفقد توازن الحقيبة فوق رأسها .

قالتا له :

– عليك أن ترسل لنا واحدة . . نحب أنْ نحتفظ بالصورة .

وعدهما ، ولوحَ مرة ثانية وهما تتابعان سيرهما . لم يكتب عنوانها : ٢٠ ماريد كوارترز ، المنطقة الغربية ، مناجم الذهب . . . فكيف تحصلان على الصورة ؟ . . سنوات مرت ، ليأتى أحد الأشخاص إلى « مورين » ليريها الصورة فى كتاب مصور بعنوان « لايف » حول جنوب إفريقيا وسياساتها . .

« مواقف بيضاء وأساليب للحياة » . . صورة جميلة لتلميذة مدرسة بيضاء ، وامرأة سوداء تضع الحقيبة المدرسية للفتاة على رأسها .

لماذا حملت « ليديا » الحقيبة ؟ . . هل أدرك المصور ما رآه عندما كانتا تعبران الطريق بهذه الكيفية معاً ؟ . . والكتاب هل وضعهما الاثنتين فى السياق العام ، وقدم سبباً لها و « لليديا » وهما فى حالتهما تلك من العاطفة والجهل ؟! . . أكانوا يعرفون ؟

الفصل الثالث



1

تنوعت أيام « بام » بين حالتى العمل والاسترخاء ، وامتنع عليه ٭ الخروج إلى الهواء الطلق فى الضواحى مع الأصدقاء ، ولم يتبق له غير تبادل الحديث مع شرب كئوس البيرة يومى السبت والأحد . . وكان الترنيم بالغناء يصاحب تفتح الورد فوق الأغصان . فى استطاعة « مورين » أن تدرك صوت « يوليو » المتعجل النبرات وضحكته من طبقة « الباريتون » فى وقفته بين أفراد قريته . فى السبت الثانى لهم بين الأكواخ دُعِىَ « بام » لتناول البيرة معهم . جاء ، « يوليو » بكوب خزفى ، وكان الآخرون يشربون من آنية فخارية . مكث « بام » معهم إلى الحد الذى قد يخرج فيه عن أدبه إذا هو تجاوزه . كان الرجال يناولونه الشراب ويقبله فى شىء من تبرم وحذر رقيقين، متظاهراً باستمتاعه بمذاقه ونكهته . وكان « يوليو » فى ذروة حركته ونشاطة يلقى عليهم حكاياته ونوادره ، التى من الواضح أنها تتعلق بهذا الرجل الذى كان يعمل عنده هذا الضيف الغريب .

رجع « بام » إلى الكوخ وملامح وجهه تشى بالرضا وبحماقة المشاركة فى جلسة للشراب لم يفهم فيها كلمة واحدة . . شراب الذرة المتخمر جلب الخدر والنعاس . . هناك مشاعر كانت أضعف من أن تُدرك وتُحس بينه وبينها . . لو يتحادثان : كيف يخرجون من هنا ؟ إلى أين ؟ . . الآن يغالبه النوم ، والأطفال فى الخارج مفتونون ببرميلين من براميل الزيت الفارغة

المغطاة بجلد بقرة . . يدق عليهما شباب لا يشعرون بالتعب . . فقط فترات خمود للحظات بين حين وآخر . . أنفاس النائم يتغير إيقاعها بتغير درجات وعيه . . صوت كسول مكتوم وخافت لا يزال يصدر من العصا التى تدق على إحدى الطبلتين ، محافظة على اتصال الإيقاع حتى يسرع ويتوزع مرة أخرى .

- شاهدت « رويس » يزيل عن ظهره آثار الأحجار هذا الصباح . . على السرير الحديدى الذى يقتسمه ليلاً مع زوجته ، استلقى « بام » بدون أية فرصة لأن يتقلب على جانبه الآخر . لم يفتح عينيه ، لكن فمه كان يتحرك فى نشوة ، والسرير يصدر صريراً مصاحباً لحركته المقيدة .

- حسناً . . لفافات أوراق التواليت . . كم من الوقت يمر وتنفد ؟

كان من الصعب أن يجعلوا الأطفال يلقون بأوراق التواليت فى مكانها بعيداً . . ما كان يثير الغثيان أن تجد قطعة ورق ملوثة بالغائط يطيرها الهواء إلى حيث تتنازع عليها الخنازير . وورق التواليت من الأساسيات القليلة التى فكرت فى إحضارها . وجدت هنا الأداة التى تستخدمها لفتح الطرف المعدنى لماكينة الغسيل بدون أن تؤذى أظافرها . أدوات أخرى تعرفت عليها شاهدتها تستعمل من حولها . . وتعرفت كذلك بشكل شخصى على أشياء تخصها : مطحنة مطبخ صغيرة ، مقص على شكل طائر اللقلق شاهدته فى يد « يوليو » عندما ألقى اللوم على المرأة العجوز لتقليمها أظافر أحد أطفاله بشفرة حلاقة .

هذه الأشياء التى كانت لها هناك ، من المحتم أنه سَرَّ بَها منذ وقت طويل . . أى أشياء أخرى على مدى السنين ؟ . . هو حتى الآن أمين تماماً ،

وعندما كان ينظف الأرضية ويجد عملة فضية قد تدحرجت بعيداً ، كان يضعها فوق الطاولة إلى جانب سرير « بام » . . لم يغلقوا بالمفتاح على أى شيء قط ، حتى دولاب المشروبات الروحية - ولو لم يحدث أن جاءت هى إلى هنا لما عرفت أبداً فقدها هذه الأشياء . الأمانة هى بالقدر الذى نعرفه عن أى شخص .

فى هِمّة أخذ « بام » فى جمع لفات ورق التواليت الأزرق وحفظها وقال - وهو الذى لم يأخذ موضوع الوقاية من الملاريا مأخذ الجد :

- نحفظها للأطفال .

قدمت له الأقراص وتناول مثلها . ابتلعوها جافة بدون ماء ، وقالت :

- إذا قضت علينا الملاريا ، ماذا يحدث لهم ؟

فترات صمت تستغرقهم عندما كان الواحد منهم ينتظر من الآخر قول ما يجب أن يقال . . كان يبدو واثقاً برغم السأم والضجر :

- سوف يرعونهم ، سيرعاهم ، إلى أن يأتى أحد .

- من يأتى ؟

- الكوبيون !

شرعا فى المزاح والضحك ، فقد كانوا دائماً يعجبون « بكاسترو » . . . البورجوازى الأبيض الذى نجح فى التحول إلى ثورى .

- الروس !

- كم علبة تبقت لدينا ؟

- ست !

- يا إلهى ! هذا العدد من الأقراص !

صوته صار خفيضاً ، وهَمَسَ فى ود :

- هل تتوقع أن نمكث هنا طويلا ؟

توقفت محطة الراديو التى كانوا يعتمدون عليها فى معرفة الأخبار طوال أربع وعشرين ساعة . . ربما هناك معركة قائمة للسيطرة عليها . عاد الإرسال الإذاعى ثانية بدون التعليق على ما حدث . إذا تغلب السود فستتصاعد أصوات الموسيقا العسكرية ، بلاغات الانتصار . . اسم جديد للبلاد . . لكن لا شىء غير تقارير عن الهجوم بقذائف صواريخ آر. بى . جى . على . « كارلتون » وما أعقبه من سيطرة قوات السود على فندق من ذوات « الخمسة نجوم » .

توجهت إلى الملجأ لتريح جسدها على مقعد من مقاعد العربة . لا أثر لمبرد الأظافر - كثيراً ما كانت تجلس تفحص أظافرها المكسورة ، تخرج ما تجده من أقذار خلف الظفر ، كما تفعل الآن بقطعة سلك رفيعة بشوكة ، أو أى شىء تجده فى كومة النفايات من حولها .

- كنت أتساءل : أين يعيش ؟ فى يوم ما ربما أصحبه فى رحلته إلى موطنه ، كنت أعرف أن هذا اليوم لنْ يأتى .

- هذا الشىء الذى يبدو طريفاً . . كان شيئاً مستحيلاً وقتها .

- بأى شكل ؟

صمت ، لم يقل شيئاً .

- بإضافة الرحلة إلى واحدة من رحلات صيدك ، وفى إجازة الأطفال ، وإحضار كل معدات إقامة مخيم تتخيل هذا ؟

تململ مظْهِراً استعداده للذهاب فى نوم خاطف .

نتجول بينهم بالهدايا التى أحضرناها من أجلهم ويصطفون فَرِحِين شاكرين ، ونقول للأطفال : هذا موطنه الذى يعيش فيه . . ترون مهارة «يوليو » فى بناء كوخه ؟ ونقول لكل شخص عندما نعود : « حقيقة » قمنا بزيارته كصديق .

تذكر « بام » فجأة وهو على عتبات النوم ، كيف كانوا فى عجلة من أمرهم وهم يلوذون بالفرار .

- أقراص الملاريا . من أين حصلت عليها ؟ بالتأكيد ليس من دولاب الحمام .

- من الصيدلية . . بعدد الهجوم على المحال التجارية .

● ● ●

آخر شىء لاحظه قبل أن يستغرق فى النوم كان وجهها النائم القريب منه . . على ملامحه ارتسم التجهم والعبوس . . استيقظ على صوت محرك العربة .

- مورين . . ماذا فعلت ؟

هزته الصدمة . . نهض من فوق السرير . . لكنها كانت فى الكوخ معه . . صاح فى وجهها .

- الملعون « فيكتور » أعطيته المفاتيح ؟

– المفاتيح ليست معى .

عند النقطة الحرجة المحفوفة بالمخاطر ، لا وقت لكى يهاجم الواحد منهما الآخر . غادرت الكوخ مسرعة إلى الجهة التى تعلم أن العربة موجودة فيها . كانت العربة تتحرك بسرعة فى اتجاه طريق الماشية ، شاهدت من الخلف رأسين لرجلين أسودين . عند عودتها تذكرت :

– المفاتيح مع « يوليو » . . كان يريد شيئاً من العربة لدراجته .

نهض « بام » من فوق السرير الضيق وعلى مظهره سيماء ذكورة لا تخفى كانت لدى الإنسان الأول قبل أن يكتسب سيطرة وتحكماً فى جسده . ، راح يمشى حول الأكواخ ، من كوخ لآخر . عدد قليل من الرجال نائمون استعداداً للذهاب طلباً لاحتساء البيرة ، النسوة اللاتى قابلهن لا يمكنهن فهم لغته . . الطبول فى رأسه تدق بإصرار . . أبناؤه أصابهم الإرهاق من الفرجة على ضاربى طبول لا يتعبون ، كانوا يلعبون بعربات من أسلاك مجدولة صنعها الأطفال السود ، قايضوا بها عربات حلبة السباق التى يملكها « فيكتور » . تكسرت العربات إلى قطع صغيرة احتفظ بها الأطفال السود الذين لا شىء فى حوزتهم يمتلكونه . ابنته كانت تأكل بأصابعها طعاماً من دقيق الذرة فى قِدْر فخار تأكل منه اثنتنان أو ثلاث فتيات صغيرات – نادت على أبيها أمامهم فى زهو .

وسط مجموعة من السكارى وجد نفسه مفهوماً . سألوا ، الواحد بعد الآخر أسئلة وتناقشوا . . وفى كلمات قليلة . قال أحدهم بالإفريكانية وليس بالإنجليزية :

– ذهب « يوليو » . . مع أحد الرجال .

شخص آخر أضاف بالإنجليزية :

- لم يخبرنا إلى أين ؟ لا نعرف .

أعتقد أنه أصبح مفهوماً ، لكنه لم يستطع التحدث عما كان يفكر فيه . كان فى احتياج إلى أن يتجاهلوا وجوده ، لكن هذا لم يحدث . فلا يمكن تجاهل وجود « مورين » والأطفال الثلاثة ، هنا فى هذا المكان .

فى روديسيا، أثناء الحرب ، قيل عن الثوار السود إنهم كانوا يجبرون البعض تحت التعذيب على التعاون معهم . . . الشىء نفسه قام به البيض . لم يستطع أن يحصل على إجابة من أحد . ربما أخذت قوات الدورية « يوليو» بعيداً لاستجوابه وتسليمهم عربة الرجل الأبيض ، تحت تهديد بندقية إلى جانب أذنه !

الحقائق التى تناقض وتشكك فى صحة ما يتردد فى ذهنه ، لم تجلب ما يبعث على الاطمئنان . إذا كان هذا ما حدث فلماذا يستمرون فى تناول البيرة وإطلاق النكات والصيحات . . ضحك ، وشِجَار ، وحكايات عن الذين أدارت الخمر رءوسهم .

لا مكان يمكن أن يلجأ إليه ، ولا نجاة . كل ما يمكنه قوله لـ « مورين» كان عن « يوليو » :

- هو ليس هنا .

- متى حصل على المفاتيح ؟

- أول أمس .

لا شىء يستدعى الملاحظة أو اللوم بينهما . كان المسئول عن الرحلة

يعرف ما هو الأفضل ، وعندما استخدم أقاربه أدوات العربة لإصلاح محراث قديم ، لم يثق فى أنهم سوف يعيدونها من بأنفسهم . . . كان يعرفهم جيداً . قال : علينا أن نغلق أبواب العربة .

عرفت أين تضع قدميها على الأرض الصلبة غير المستوية ، بدلت من وضع جسدها إلى وضع آخر يحقق لها شيئاً من الراحة ، جلست على المقعد تزيل أعواداً جافة شائكة من « بلوفر » لأحد أطفالها ، وتضعها فى كومة إلى جانبها حتى لا تؤذى أحداً قد يطؤها بقدمه .

فى غير حضور « يوليو » هما الاثنان فقط حاضران ، شعر نحو «مورين » بهزيمة من نوع ما . كانت خائفة عابسة ، نهضت ، جمعت كومة الأعواد الجافة وذهبت لإلقائها فى جذوة نار الفرن خارج الكوخ . كانت كما لو أن شخصاً ما يقود كيانها كله ، مثل جهاز كهرباء يكاد ينفجر عند لمسة خاطئة، ليس هو الخوف ، وإنما هى المعرفة بأن الصدمة والسقوط أمر يحدث للنفس وهى وحيدة ، ويمكن تجنبه وتفاديه فقط وهى وحيدة .

رغب فى أن ينادى الأطفال للحضور إلى داخل الكوخ ، لكنه لم يعرف كيف يشرح لهم الدوافع وراء رغبته هذه ، كما لا يعرف ما إذا كانت هى تشاركه فى هذا الشعور . إذا قالت : لماذا ؟ . . فماذا سوف يقول ؟ . . داخل أعواد البوص ، البندقية مخبأة هناك فوق رءوسهم عندما كانوا واقفين فى الكوخ . لا مكان لأى شخص لكى يخفى أى شىء عن الآخرين ، أى مكان توضع فيه بندقية رجل أبيض بين هؤلاء الناس الذين آووهم بدون أن يسألوا أنفسهم : لماذا كان عليهم أن يقدموا الحماية والغذاء ؟

إذا حمل بندقيته ولقى مصرعه ، فهل يمكن أن يكون ذلك دفاعاً عما

سوف يحدث بعد الخروج على حماية « يوليو » ؟ . . « أنا صبى يمسك بفرع شجرة جاف » . . رغب فى أن يقولها بأعلى الصوت .

الصبية الصغار رجعوا إلى الكوخ من تلقاء أنفسهم . . كانوا جوعى . . ذهب إلى « بام » ودون كلمة بحث عن مدية مزودة بفتاحة علب يحتفظ بها فى جيبه . لاحظ أنها أعطتهم آخر المتبقى من سجق لحم الخنزير ، وتخاطفوه بينهم . « جينا » كانت تنادى ولا أحد يعيرها أدنى اهتمام . سارت متجهة إلى المرأة العجوز التى تحمل أطفالاً صغاراً أشقاء وشقيقات . حملت « جينا » طفلاً رضيعاً على ظهرها الصغير ، وارتسمت على ملامح وجهها علامات الجد والأهمية . جلست طاوية ساقيها تحتها . . حركت المنشفة التى تربطها بالطفل الرضيع والمعقود بأنشوطة فوق عظام صدرها الخالى من أثر الثدى ، إصبع من لحم السجق قدم إليها . . هزت رأسها فى صمت يحمل شعوراً بالمسئولية ، أو هى تظاهرت بذلك .

لا شك أن ابنته فى داخلها أم صغيرة . هو و « مورين » كلاهما مفتون بها ، عيناها زرقاوان فى قناع لوجه مترب . التربة الحمراء نقشت علامات وخطوطاً فوق أصابع يديها وقدميها ، واكتسى الزغب الأبيض غير المرئى فوق ساقيها الشقراوين بطبقه من طلاء ترابى ، والتراب على جسدها لا يبدو على النحو الردىء كما يظهر فوق أجساد الأطفال السود .

– الطفل الرضيع ، يعود إلى أمه ، الآن .

– لماذا ؟

– لأنه لا يحب الابتعاد عن أمه طويلا .

– طفل من ؟ من أى كوخ ؟

- لا أعرف .

يلعقون بألسنتهم قذارة أصابعهم مع السجق . كان الأطفال يراقبون النزاع باهتمام وبدون تحيز ، شاهدوا اقتراب عائلتهم من أحد الأطفال أمثالهم . باهتمام لا مفر منه ، اتجه والدهم إلى شقيقتهم .

- هيا . . نأخذه إلى منزله .

ابتعدت عن متناول يده وهو يريد منها النهوض . ارتفعت صيحات الأطفال . فتح الطفل الرضيع إحدى عينيه فى حين ظلت الأخرى ملتصقة بالنوم .

الأطفال الثلاثة حبيسو مباراة لا تنتهى فى تعذيب كل منهم . . « جينا » مستلقية على مقعد العربة الذى تحول إلى سرير يتقاسمونه فيما بينهم . ترك الأطفال ريش الدجاج الذى كانوا يطيرونه مع تيارات الهواء ، وجاءوا ليدفعوا بها من فوق السرير إلى الأرض . الرجل والمرأة غير قادرين على تحمل الضوضاء أو الاستغاثة بما لهم من اعتبار ونفوذ لديهم . استلقى هو على السرير ، وجلست هى على كرسى منخفض صغير بلا ظهر عند المدخل . بين حين وآخر كانت تأتى وتقف إلى جانب السرير .

- تريدين أن تستلقى بجسدك ؟

لا سبب هناك يجعل من عودة « يوليو » فى أى وقت أمراً غير متوقع . عند المدخل ، حدقت بعيداً ناحية الكوخ غير المسقوف خلف الأشجار الذى اختفت عنده بعض الحيوانات . . من فوق السرير استمر الرجل فى إلقاء نظرات عجلى متكررة إلى ساعة يده ، لكنها كانت تعلم أن لا فائدة من ذلك هنا ، ليس فى استطاعتها أن تكسبت صوتاً بداخلها ينذر بعذاب وألم .

راقبت العشب والشجر . . . كان هناك قط فى مواجهة جحر فئران ، وأمامهما المدى المتسع الفسيح .

عندما أغلق عينيه ، رأى فى فتحة باب الكوخ ألسنة لهب أبيض ، يمكنه فتح عينيه فى بياض الثلج وأشكال وصور آمنة منعزلة قد تعوزها الرقة . . السفر إلى « كندا » بعد خمس سنوات من الآن سوف تكون أقدامهم قد توطدت هناك . كل عضلة من جسده مشدودة برباط محكم إلى قبضة لا تسمح له بأى هامش من الحركة والحرية . إذا لم يكن كل شىء من أجلها ، فربما كان قد تذكر الشىء الحقيقى الذى أحسه وأراد أن يفعله : البقاء أو الذهاب . . كانت لديها الرغبة أن تجد نفسها حوله . انقسم على نفسه فى الوقت الذى ظلا فيه معا مثل أشجار التين التى تتصدع .

أمسك الراديو وأدار المؤشر . . أصوات غضب جهنمى .

– يا إلهى !

رجعت لتقف بالقرب منه . خفض من صوت الراديو ، واستمر فى تحريك المؤشر .

– لا شىء . أنت تبدد حجر البطارية .

فجأة ، تصاعد غضبه . . لكن قبل أن يعبر عنه . . رفعت رأسها قائلة :

– البيض الذين يتحدثون لغة السود ، لماذا هم ليسوا مثلنا ؟! . . لا نشك لحظة فى تفوق الجنس الأبيض .

– لا شىء منهم هناك . لا أستطيع تحملا الآن . البيض فى المصارف

ومكاتب العمل الذين اعتادوا التعامل مع السود كل الوقت، كونهم يتحدثون اللغة الإفريكانية يعنى ببساطة أنهم قد اكتسبوا مهارة عليك أن تكتسبها حتى تحصل على عمل حول أى شيء محاضرتك هذه .

لم يلحظ أنه تحدث عما هناك مستخدماً الزمن الماضى .

– لا أريد التفكير فى كل هذه الأمور . . نحن نخدع أنفسنا بتلك الأكاذيب . . إنها أكاذيب . . البراجماتية [1] ليست ذات أهمية . . . هذا هو ما أتحدث عنه .

رئيس الوردية « جم » تحدث إلى الأسود ابن الحرام « لنجوفرانكا » عن المناجم ، وهو الذى مفرداته من اللغة لا تتجاوز مجموعة أوامر تصدر من البيض ويمتثل لها السود . القصة القديمة المخجلة – عندما تزوجت زوجها الليبرالى الشاب – عن رجل أبيض صاحب عمل تحدث إلى عمال سود بلغة لا يفهمونها ، الأمر الذى اعتبرته إهانة للثقافة السوداء . . . الآن هو زوجها الذى تحيله إلى الخجل القديم الذى تخجل منه الآن .

– لو كنا ذهبنا منذ عشر سنوات مضت ، لكنت قلت لى إننا لذنا بالفرار. مكثنا هنا وعشنا حياة طيبة على قدر استطاعتنا . . . ولا نستطيع الفكاك .

الخدعة لا تزال قائمة . . وطرف الحبل تمسك به فى يدها . كانت كمن يحكى حكاية يبين فيها أهميته ، ويصدق حكايته والخدعة التى نسج خيوطها – أعطونى سمعكم : فى لجنة التحكيم كنت . . كانت جائزة

(1) البراجمانية : هى الفلسفة العملية التى تجعل المنفعة العملية مقياساً للحق والباطل ، والخير والشر .

المعمار الدولية عندما ذهبت إلى « بوينس إيرس » ، معددة أسماء شهيرة كانت من بينها ، مشيرة إلى علو مكانتها بأقل كلمات .

« غالبيتنا لم نكن فى استطاعتنا التحدث بالإسبانية ؛ لذا دارت المناقشات بالفرنسية » . . وبينت أن بإمكانك التحدث بالفرنسية التى لم تكن تمثل لك مشكلة . « كل منا اختار مرشحه للفوز وقدم مسوغات ترشيحه » . . أنصت إليك فى كل وقت . . كنت أسمعك . . وعندما سأل أحدهم ممن وقع عليهم ترشيحك ولم يكن فى مقدروك الإجابة . . . كانت تخونك الذاكرة . فى حقيقة الأمر كنت تستمتعين بأهمية وجودك هناك . . بأهمية كونك ضمن لجنة التحكيم . . وكان أن أعطيت صوتك لمرشحين قد اختارهم لك شخص آخر باللجنة ، وصدقت أنتِ ما تنسجينه من خداع للنفس وللآخرين .

لم أصدق قط غيرتك ، لكنها حقيقة . هل تعرفين بماذا تذكرينني ؟ . . عندما كنت أعيش مع « ماشا » ، وكنا فى انتظار تناول العشاء فى شقة والدها . . قالت لى عندما ذهبت والدتها لإحضار خبز من المطبخ : يجب أن أخبرك . . أنا أحب « جان بول » . . . وإلى المنضدة كان يجلس والدها الأصم .

ألقى نظرة عجلى على الأطفال المتشاحنين وهم فى غفلة من أمرهم . للحظة ضحك بصوت عالٍ ضحكة مروعة . وشَتْ زاوية فمها بما فى داخلها من خشية وروع . داخل صوته عنف وشىء من قسوة :

– أنتن – معشر النساء – جبناء . . جبناء !

– كل شىء يبعث على السخرية . .

جاءه صوتها ، وظهرها له . ذراعاها تحيطان بركبتيها ، جالسة على الأرض الطينية عند المدخل ، ناظرة إلى الغابة البعيدة . . أخفى الضباب معالمها فى الظلمة التى تسدل أستارها .

- ما الذى تريدينه ؟ . . تستحضرين فى ذهنك صورة « السوبرمان» حتى تحمليهم ، على التسليم بتفوقك ؟ . . أعرف ، أعطيته المفاتيح .

- لماذا لا تقر بأنه كان من الجنون أن تلوذ بالفرار ؟

أحس برذاذ اللعاب المنبثق من فمها على وجهه . للحظة فكر فيما يمكن أن تفعله أظفارها فى وجهه أيضاً . هو وهى كل منهما يقاتل الآخر بشكل مروع لم يحدث من قبل . . تحدثت بنبرة شاكية تحمل شيئاً من ضغينة .

- أردت أنت أن تذهب . . لماذا تفعل الشىء الذى أريد ؟ ألتحل نفسك من أية تبعة تنجم إذا ما أخذت أنت قرارك ؟

- ما الذى تتحدثين بشأنه ؟ أنتِ أردتِ الذهاب ؟

- حتى قبل أن يعرض علينا مشورته . . لم أكن أتحمل طريقته فى إعادة ترتيب الحقائق .

- ليس عليك أن تتظاهرى بشىء ، وليس مُهِمّاً أن تضعى نفسك فى مواقف معينة ، حتى يتسنى لك بيعها للصحف عندما يتوقف كل شىء .

راح الأطفال فى النوم وهم فى أماكنهم . فى رقة عدل من أوضاع الصغار التى كانت أجسادهم عليها وأنكهت قواهم . . يد « جينا » الصغيرة مفتوحة بالقرب من أُذُن « رويس » التى كانت بجوارها . وخد « فكتور » الموسوم بخطوط الدموع والأتربة يستريح فوق تعويذة لمنع الحسد انتزعها من

« جينا » على هيئة خرز ملون معقود فى خيط مع قطع صغيرة من جلد حيوان. حلت الأبوة محل رعاية افتقدها الأطفال نتيجة توتر أصاب الأم .

سقط ضوء المصباح الغازى على وسادتها المصنوعة من القش . . تركتهم وذهبت . . كان الطقس حارًا فى الخارج وعند حلول العتمة لم تخف درجة الحرارة أيضاً . القمر اختنق ، والنجوم فقدت بريقها ، ومساحات العشب والأشجار المتناثرة تخفى داخلها الأشياء والأحياء التى توارت واختبأت خلف أستار الظلمة . . حشرات لا تكف عن الطنين ، صرخات وأصوات ارتطام فى حركة دائبة جيئة وذهاباً بغير توقف .

من أكثر الأمور غرابة ، أن تجد نفسك كل ليلة أمام بحر من العتمة ، يبتلع فى جوفه كل نشاط إنسانى . فى هذه الليلة فقط - ليلة السبت - ينهضون من النوم ، يمتطون ظهور الخيال . . . ومثل النسور تنشر أجنحتها محلقة فى الفضاء عالياً ، وينتزعون أنفسهم بعيداً ، متوسلين بأنوار بطارية صغيرة ، تضىء حفلهم المقام فى حضرة الكون واللانهاية .

حرارة الجو والعتمة الكثيفة بدأتا رحلة الأفول والانحسار . . عادت إلى الكوخ . . المطر الخفيف المتساقط فوق أعواد البوص الجافة لا يجد قنوات تصرفه . . أحضر الكرسى الصغير بغير ظهر إلى جانب السرير الحديدى ، ووضع فوقه المصباح . . كانت المرة الأولى التى يسقط فيها المطر منذ قدومهم . . أعواد البوص فى جدران الكوخ تحول لونها إلى شىء من قتام ، ولم تستطع منع تسرب الماء إلى داخل الكوخ الذى زحفت إليه الحشرات التى فى طور ما قبل الطيران . كانت تعلم أن ضوء المصباح يجتذب تلك الحشرات ، لكنه تركه مشتعلاً . الصراصير الطائرة التى ترتطم بوجهها كانت مألوفة لديها . حشرات أخرى ملونة تشبه الجراد كبيرة الحجم مكسوة

بحلقات مفصلية ، ترفض الموت برغم ضربات الحذاء المتكررة والقوام اللديني الذى يميزها . أشكال مختلفة من الحشرات تقبع فى البركة الضحلة بأرضية الكوخ بأرجلها المسننة المرتعشة .

هو وهى حملا الأطفال على السرير بعيداً عن الأرضية الموحلة ، وجلسا على مقاعد العربة . المصباح يصدر هسيساً [1] ورائحةً نتيجة احتراق زيت البرافين . لم يقرأ فى الرواية التى بجانبه ولم يطفىء شعلة المصباح مثل الجالسين فى حجرة انتظار بمستشفى ، لا أحد ينظر إلى الآخر . . شعر بالتعب . . كوم جسده فوق مقعد العربة . . تدلت قدماه . . لم يعرف أنها أطفأت شعلة المصباح ، وامتنع صوت الهسيس . المطر الذى خفت حدته عاد ثانية إلى حالته الأولى .

خرجت من الكوخ . . وجهها داهمته الظلمة والمطر . . حرصت على أن تعرف أين موقع الكوخ لترجع إليه . . خلعت ملابسها دفعة واحدة محتمية بحائط طينى مبلل . . حفظت ملابسها بعيداً عن الطين . . تركت المطر ينزلق على وجهها وعلى جسدها كله . . أدارت جسدها كما لو أنها كانت تغتسل تحت « دش » حمام المنزل . . انخفضت حرارة جسدها لتقارب درجة حرارة مياه المطر . . أصبحت قادرة على تمييز المرئيات . . أول ما شاهدته كان أشبه بانعكاس وهج شمعة من نافذة زجاجية تتحرك وسط المطر من بعيد . لا بد أن المطر قد هدأ هطوله . رأت شعاعين من الضوء رفيعين باهتين يتحركان فى الظلام . ازداد تقدم شعاعى الضوء ولاحا كأنهما فى منتصف الطريق صعوداً إلى السماء . استعادت إدراكها للاتجاه مع تتبعها

(1) الهسيس : الصوت الخفى .

لتقدم المسارين الفوسفوريين . . اصطدمت بوتد خشبى ، فلا وجود لخريطة للسير على هديها في الظلام والمطر . . فقد كانت بقايا أكواخ تهدمت . . العربة كانت تزحف ببطء إلى الخلف . . وفى الكوخ الذى لا سقف له أطفئت الأنوار الأمامية للعربة ، والمحرك كف عن الدوران .

وصل إليها صوته عبر الوادى والمطر . كان رجلاً كثير الكلام يحب الإشراف على كل شىء . . يحرق نفاية الحديقة . . ينظر فى دولاب المطبخ لمعرفة ما يلزم شراؤه . ليس فى يده مصدر ضوئى يسير على هديه . . إنه يعرف طريقه فى الظلام حتى من غير الاهتداء بالضوء الصادر من جذوة موقد أطفأها المطر .

دخلت الكوخ بسبب الحشرات الميتة فى الأرض الموحلة . . كانت ترتدى فى قدميها حذاءً من قماش « الكانفا » وقد تشبع بماء المطر . . عرفت طريقها إلى ثياب الأطفال غير النظيفة وجففت بها جسدها . . ارتدت سترة صوفية . . ونامت فوق مقعد العربة ، كغريق ملفوف فى كساء دفىء .

2

كان زوجها عارى القدمين ، مرتدياً معطف المطر المبلل . أشعل الموقد الغازى . بدأ الأطفال السعال ذاته الذى يسمعه المرء دائماً من الأطفال السود . من خلال مدخل الكوخ ، أمكنها رؤية خطوط المطر الفضية . صب الماء المغلى على أوراق الشاى ، وأخذ جهاز الراديو فى عناد وحزن ، وحرك المؤشر فانطلق الصوت واضحاً .

أحنى رأسه فوق الصندوق الأسود الصغير . . عيناه الصامتتان نقلتا إليها عدم رغبته فى التحدث . . . عدد من صواريخ « سام » سقط على المدينة فى هجوم بالصواريخ وقع فى ساعة متأخرة من ليلة الجمعة . مبنى لشركة تأمين أصيب بأضرار بالغة . طيران منخفض نتج عنه خسائر فادحة . وتسبب فى قطع الاتصالات الموصل بالجهتين الشرقية والغربية . محاولة لاحتلال استديوهات التليفزيون فى « أوكلاند بارك » تصدت لها قوات الكوماندوز بقيادة الكولونيل « مايك هوار » قائد القوات الخاصة لمقاومة تمرد قوات « الغوريلا » فى « زائير » ودول إفريقية أخرى . . محطة إرسال إذاعى أصابها عطل ، لكن مدير استديوهات « أوكلاند بارك » لم يدل بتصريحات فى هذا الشأن .

انزلقت مرة أخرى داخل الغطاء ، واستلقت بدون أن تقول شيئاً عن العربة . أحضر لها مشروباً روحياً فى كوب زجاجى ، وبغير وعى عبرت

قسمات وجهها عن استمتاعها بالجرعة الأولى كما لو كانت جرعة من شراب الويسكى الجيد .

- ربما يحدث شىء فى القريب .

- ماذا تتوقعين أن تسمعى ؟

كان يحتسى شرابه الساخن ويداه الاثنتان حول الكوب الزجاجى . هز كتفيه مستهجناً الرائحة النفاذة للقش المبلل والرطب ، والبرد الذى لا يستطيع الكوخ مقاومته . كان ينتظر منها أن تقول : « هل نرجع ثانية ؟ » كانوا قد هربوا من القتال الدائر فى الشارع .. من الخطر المحدق بالأطفال .. من ضرورة الدفاع عن حياتهم باسم مبادىء لم يعتنقوها فى مجتمع أبيض مفكك هم غير مقتنعين به .. نرجع فى الحال ؟ .. كيف يستقبلون؟ .. الأشياء سوف تهدأ على نحو ما . البعض رجع إلى «الكونغو». أعداد من الروديسيين (سميث) مكثوا فى زبمبابوى (موجابى). بعض الأصدقاء البرتغاليين عادوا إلى « موبوتو » عند ما لم يعد هناك « لورنزو ماركوس » هؤلاء كانوا على استعداد للحياة بطريقة جديدة .

احتفظت بما تعرفه عن العربة لنفسها . أحست أن لها الحق فى ألا تكشف له عما تعرفه باعتباره ملكية خاصة ، وأن هذا لا يعيبها فى شىء .. فالقلق الذى عانياه معاً منذ بعد ظهر أمس الأول كان بسببه هو ، عندما استمعا إلى الأخبار السيئة من الراديو .. ستأتى لحظة تجد نفسها فيها تريد أن تخبره. لن تجعله يتساءل : كيف توصلت إلى معرفة ما عرفته ؟ .. كان صامتاً يستنكر خلعها لملابسها فى منتصف الليل تحت المطر مثلما يحدث فى مشهد من مشاهد « السيكو دراما التليفزيونية » ... ها هو ذا قد بدا

الاستياء على وجهه ، ونظرة التساؤل عندما نهض ولاحظ ما ترتديه تحت السترة الصوفية ، من قطعة رقيقة من ثيابها الداخلية . . . مثل بعض الصور الفوتوغرافية فى مجلة إباحية . أو كرسم لامرأة ضمن رسومات « تولوز لوتريك » فى معرض شاهداه معاً فى أوربا .

ارتدت قطعة ثياب مبللة من الليلة الماضية تحت السترة الصوفية التى أغلقت أزرارها . . وقبل أن تصل للنقطة التى بعدها تخبره عما تعرفه ، كان صوت « يوليو » عند مدخل الكوخ . . يدا « بام » تحركتا فى اندفاعة مفاجئة . . . ربما ورد على خاطره فى تلك اللحظة أنها كانت تعلم بعودة «يوليو » . . خدعة . . الخديعة منها هذه المرة .

اعتاد الطَّرْقَ على الباب يطلب الإذن بالدخول . . كان يحمل ملء ذراع من خشب الأشجار وجوال سماد فارغ ممزق . . لم يرد فـى ذهنها إحضار بعض الخشب داخل الملجأ عندما بدأ المطر :

- أشعِلُوا النار فى بعض الخشب . . اليوم سيكون بارداً بعض الشىء . .

كان « رويس » يسعل عندما استيقظ من نومه محدقاً فى الفراغ ، وقد استعادت نظراته وعيها عندما وقعت عيناه على « يوليو » الذى.كان قد خلع معطف المطر المصنوع من البلاستيك ، وبدأ يستعد لإشعال النار فى الموقد.

لم يرحب « بام » « بيوليو » و « مورين » لم تصدق رؤيتها لوجه الرجل الأبيض القديم الساخر ، وهو يغالب إظهار ما يعتمل فى داخله من اعتراض على تصرف خادمه .

- أين كنت أمس ؟ . . ما الحكاية ؟

استمر « يوليو » فى عمل الأشياء التى هو خبير بها . . يقطع فروع

الشجر ويرتب حفنة أوراق . . وكلمة أو كلمات « لرويس » حتى لا ينهض من سريره .

- بعد قليل يصبح الجو أكثر دفئاً . . ستشعر بتحسن مع اشتعال النار.

- ساورنا القلق عليك .

فى كلماتها له إطراء وشىء من تملق :

- أين ذهبت ؟

أعطاه « بام » كل ما يجعله يشعر بأهميته .

- إلى المحال التجارية .

اعتدل « بام » فى جلسته ومسح راحة يده فى سرواله . . المحال التجارية ! . . كما لو أنه ذهب إلى ناحية الشارع لكى يأتى بزجاجة حليب بعد نفاده من المنزل ! . . المحال التجارية ! . . أقرب مسافة إلى أحد هذه المحال لابد أن يكون طولها ٤٠ كيلو متراً حيث نقطة البوليس هناك ومضخة البنزين فى المتجر الهندى .

كانت الكلمات تتزاحم على فم « بام » قبل أن يتخير منها ما يقوله :

- من قاد العربة ؟

- واحد من الذين عملوا هناك فى « بيثال » وكان يقود شاحنة لدى شركة تنتج اللبن والجبن . . لقد أحضرت زيت البرافين والملح والشاى والمربى وأعواد الكبريت . . كل شىء . . وعندما يكف هطول المطر تأتى معى لنحضر هذه الأشياء من هناك .

ربت بيده على مفاتيح العربة فى جيبه .

- هل كان معك نقود ؟

كانت تعرف أنه من المستحيل أن يأتى بهذه الأشياء بغير مقابل من رزمة الأوراق المالية التى أصابها البلل وجفت ثانية فى موضعها بالحقيبة التى تجلس فوقها « جينا » .

ـ 15,35 « رنداً »

أحصى ماله على « بام » من نقود ولم ينس أجزاء « الرند » .

- سندفع . . سندفع . هل رآك أحد ؟ . أقصد هل قلت لهم شيئاً؟ . . هل سألك أحدهم ؟ . . ماذا يحدث هناك ؟

ابتسم ابتسامة صاحبها صوت قهقهة عالية . . . الصوت المألوف لديهم عند سؤاله شيئاً يكون واضحاً !

- الكثيرون يعرفوننى . . منذ وُلدت وأنا هنا . . الجميع يرحبون بى .

- كل شىء هادىء هناك ؟ لا قتال ؟

ضحك « يوليو » وقال :

- أخبرونى فى المنجم ، أن هناك قلاقل كثيرة والناس لا يريدون البقاء ، ويعودون إلى قُراهم . . يقولون إنهم يحرقون المنازل وكل شىء ، كما حدث فى المدينة . . والأشياء فى السوق الهندى ترتفع أسعارها باستمرار ، وهناك نقص فى المواد الاستهلاكية مثل السكر وغيره من الاحتياجات ، حتى علب الكبريت عليك أن تقاتل حتى تحصل عليها .

- المنجم ؟

أجابها « بام » :

- هناك منجم من رقائق « الاسبستوس » على بعد ٦٠ كيلو متراً فى الاتجاه الآخر ناحية الغرب ، وعدد كبير من الرجال يتعاقدون للعمل فيه .

- جاء بعض الجنود إلى المتجر فى الأسبوع الماضى ، وعندما شاهدهم الهنود لاذوا بالفرار .

- من يحتفظ بمتجره مفتوحاً ؟

كان « يوليو » مغتبطاً :

- عندما رجع الجنود من حيث أتوا ، عاد الهنود إلى المتاجر . تقلب الطفل الصغير « رويس » على السرير ، واستند إلى فخذ « يوليو » فى محاولة للنهوض ، لكن الرجل الأسود حمل الطفل وأعاده ثانية إلى السرير . . . وفى لهجة آمرة تلقاها الأبوان فى ود قال :

- حالما تخف حدة المطر أبعث إليك أحدهم ليحضرك .

ارتدى معطف المطر ، وبدأت أصابعه البحث فى جيبه :

- أحضرت لك . .

بحركة مفاجئة رفع راحة يده وناولها حجرى بطارية صغيرين لجهاز الراديو .

- مدهش . . كم هو جميل منك أن تتذكر .

كان قد سمعها تقول هذا ، عند قدوم أصدقاء يحضرون معهم زهوراً أو

حلوى الشيكولاته . . ابتسم ابتسامة عريضة وأحنى رأسه قليلاً ، كما كانوا يفعلون . . الآن تسمع كلاماً لطيفاً وتزهو بنفسك يا « يوليو » .

تأملت حَجَرَيِ البطارية فى يدها ، وابتسمت عندما خطر بذهنها أن حجر البطارية الجديد لا يمكنه إحضار الأصوات التى بالخلف هناك ، إذا ماضربت محطة الإذاعة .

– احفظيهما فى مكان جاف .

الحقيبة . . نالتها الرطوبة أيضاً فى مكانها على الأرض :

– لو نجد قالبين من الطوب لنضع الحقيبة فوقهما .

لكن قوالب الطوب كانت سلعة عزيزة ، تستعمل فى كل كوخ لرفع الأسرة عن الأرض . . كان على « بام » أن يأتى إليها بقالبين من الطوب . . ووجدت الحل الذى يريحها . . . سأطلب ذلك من « يوليو » .

أصبح فى مقدورها الآن صنع الثريد . . طعام هؤلاء البشر . . الملح ! . . لقد أحضر الملح معه . . الآن يمكنها أن تضع الملح فى الماء وتغلى الطعام .

من المؤكد أن السود شاهدوه بالمتجر وبحوزته عربة صفراء . .

– هكذا . . يحضر كما لو أن السعادة قد حضرت معه .

كانت تقلب الطعام فوق الموقد والملعقة تقطر فى يدها . . نظرت إلى «بام» وهى تفكر فى كيفية التصرف معه ، وليس فيما قال :

– المربى ستكون جيدة . . ملعقتان من المربى مع هذا .

قلبت بالمعلقة بقوة كأنها تريد تحريك طاقاتها المعطلة .

– هو بالفعل أحضر لنا بعض الاحتياجات .

الفصل الرابع



1

حانت اللحظة لكى يسترد المفاتيح ، ولكنه تركها تمر بدون أن يطلبها منه .

وقفا تحت شمس الظهيرة وشاهدا إلى جانب الكوخ المهجور ، العربة الصفراء تتحرك إلى الوراء وتثب إلى الأمام وتقفز فجأة مرة أخرى إلى الوراء ، ثم تقف حركة المحرك . . وكان « يوليو » ممسكاً بعجلة القيادة وصديقه يعلمه كيف يقود .

بعد المطر ، تنفس الفضاء هواءً دافئاً ، وخرجت الأغطية المبللة بكل أشكالها وألوانها من الأكواخ لتتعرض لأشعة الشمس . وكان الإذعان لقوى الطبيعة شيئاً قد نسوه وتركوه خلفهم . وكانت « مورين » ترتجف من البرد ، ولا تملك ثياباً جافة بدل المبللة ، والنار المشتعلة فى الحطب الجاف بالموقد - والتى تملأ الكوخ بالدخان - كانت مركز لقاء للكائنات الحية جميعها : الأطفال ، والطيور ، والكلاب ، وحيوانات من فصيلة الثدييات . . . كُلٌّ اقترب من النار بالقدر الذى تحدده له طبيعة وجوده ودرجة رقيه « بام » و«مورين » كانا يتوقان إلى سجائر ونبيذ ومشروبات كحولية ، و « رويس » و«جينا» تجتاحهما الرغبة الشديدة فى تناول الحلوى ، لكن شعلة النار التى لا تنطفىء فى أيام المطر ، قد لبت كل الاحتياجات .

عندما شعر بإرهاق من درس القيادة ، جلس « يوليو » وصديقه القرفصاء يتحدثان لفهم ما قد غمض من الدرس ، فهو بغير شك لديه الحافز والرغبة فى التحدث إلى آخرين أثناء محاولته اكتساب مهارة جديدة . . . وبينما هو يسير هناك فى الوادى ، وعند مسافة كافية يراهم فيها ويرونه ، لوح بيده مبتهجاً :

- لم أكن أتصور أنه يمكن أن يفعل شيئاً مثل ذلك ، فهو دائماً كان منضبطاً ، ولم يخرج عن حدود اللياقة .

توقف « بام » عن الكلام للحظة للتأكد من أنها تقبلت عبارته على وضعها الصحيح وبدقة .

- لم يكن أسيرنا . . ولم نمنحه حياة هو قد سألنا إياها . . وبالرغم من كل تفاوت وتمييز ، لم ينحرف عن النقطة التى تحتفظ له ولنا بحالة من التوازن .

عرفان بجميل أوصلها إلى نقطة تصادم :

- نحن ندين له بكل شىء . .

ابتسم زوجها . . لم يكن الأمر بالنسبة له يتعلق بمفاتيح العربة فقط . لم تنكر ذلك . كانت تعرض الحقائق أمام نفسها . . حقيقة العملة التى قد تم تعديل قيمتها . . لم تكن العملة الورقية فقط التى لا يمكنها أن تأتى بها هو مفتقد هنا . . . كل العملات تغيرت قيمتها وداهمها التعديل والتغيير .

- كان من الممكن أن أعطيه المفاتيح فى أى وقت . . أعلمه القيادة بنفسى . . لكنه لم يسألنى . حسناً . . شخص ما عليه أن يأتى لنا باحتياجاتنا .

- إلى أن تنفد النقود .

- النقود ؟! . . سوف نرحل من هنا . . ومعنا الكثير منها .

كانت تلويحة يد « يوليو » الساذجة خالية من أى قصد ، عندما جاء يحمل معه خشباً لا يزال مبللاً بالرطوبة وسط الضباب المائل للزرقة الذى لف هواء المنطقة والمتصاعد من مواقد الطبخ خارج الأكواخ . وتحدث «بام» فى دماثة ولطف :

- أزعجت نفسك . . قلت لك ، أستطيع قطع أخشابى بنفسى . . كان عليك ألا تفعل ذلك .

- النسوة يجلبن الخشب . . هن يفعلن ذلك دائماً .

كانت ملاحظة فى غير محلها سببها الحماس الذى غلبه .

- أستطيع الدوران بالعربة يمنة ويسرة . . وأعرف كيف أرجع بها إلى الخلف . . صديقى علمنى جيداً .

- لم تقل إنك ستتعلم القيادة ، ولم تقل قط إنك تريد أن تتعلمها .

- فى المدينة ؟

كان الانتقاص من قدراته تذكيرا لهِ بأنهم يعرفون الحدود التى يجب أن يقف عندها ، والتى يعرفها جيداً .

- هنا . . هنا .

أمال جسده نحوه فى ثقة مستخدماً يديه .

- أمر غير طيب أن يقود العربة شخص آخر . . أليس كذلك ؟ . . من الأفضل كثيراً أن أقودها بنفسى . .

- وإذا أمسكوا بك وأنت لا تحمل رخصة القيادة ؟ .

ضحك وقال :

- من يمسك بى ؟ رجل البوليس الأبيض لاذ بالفرار قبل مجىء الجنود السود حتى لا يأخذوه معهم . لا أحد هناك يمكنه أن يسألنى : أين رخصتى وبطاقتى الشخصية ؟ لا أحد يمكنه بعد الآن . . لقد انتهى كل شىء . .

- مازلت أشعر بالقلق ، فربما يجىء أحد يبحث عنا هنا بسبب العربة .

- العربة ؟ . . لقد أخبرتهم أننى حصلت عليها منك فى المدينة وأن العربة ملكى . . ماذا فى استطاعتهم أن يقولوا بعد ذلك ؟

- العربة ملكك ؟

ضحكوا . . هم الثلاثة .

- « مارتا » ، أعطتنى شيئاً لسعال الأطفال ، صنعته من الأعشاب التى تغليها فى الماء .

فى الحال عينا « يوليو » أغمضتا نصف إغماضة .

- ماذا ؟ . . أعطتك ماذا ؟ . . هذا الشراب غير طيب .

- لكنها أعطته للطفل الصغير . . طفلك . . لهذا سألتها بعضاً منه لـ «جينا » و « لرويس » الذى لم يكف عن السعال طول الليل .

وجهه الغاضب الممتلىء بالسخط على زوجته، كان يضطرب بشىء مكبوت غير معلن . . لم يكن رجلاً بسيطاً . خمسة عشر عاماً هناك لم يستطيعا فهمه . وكان أن أرجعا ذلك إلى تلك التبعية المشوهة للطبيعة الإنسانية . . . تبعيته لهم .

– هذا الدواء غير طيب لـ « رويس » . . لا تعطيه إياه . . هل أعطيته ؟

– لا . . كنت سأعطيه إياه هذه الليلة . . فقد تصورت أنه ربما يبعث على النوم .

– إنه . . ليس للبيض .

كانت تبتسم .

– يوليو . . طفلك أخذ منه . . لا تقل لى إنه يسبب أى أذًى .

– أولئك النسوة الفلاحات لا يعرفن شيئاً . إنهن يصدقن أى شىء . . متى رأيتنى آخذ هذه الأدوية الإفريقية . . وأنا مريض هناك ؟ . . لقد كنت ترسليننى إلى المستشفى فى المدينة .

– لكن حتى فى المدينة يستخدمون النباتات فى بعض الأدوية لعلاج السعال .

– سأحاول الذهاب إلى المتجر الهندى لأحضر بعضاً منها . . سأحضر أغطية من منزلى حتى يجد « رويس » الدفء الكافى أثناء الليل .

هزت رأسها مبتسمة وشاكرة ، وبسرعة وخفة تحولت من موقع السؤال إلى موقع تتخذ فيه القرار .

– أنا ذاهبة ؛ لكى أضع حصير أرضية العربة المصنوع من المطاط تحت المكان الذى ينام فيه .

كانت يدها ممدودة .

- أردتُ إحضاره هذا الصباح . . لكن المفاتيح كانت معك .

لم يحدث من قبل أن صاح « بام » فى وجه « يوليو » فى المدينة . . . لأنه كرجل أبيض كان يظهر على الصورة التى يجب أن يراها عليه الآخرون . . . حتى إنه كان يخرج ليتمشى فى فناء منزله إذا ما وقعت عيناه على ما قد يشين بالقرب من غرفة النوم ، فى حين كان أصدقاؤه الآخرون فى ثيابهم الفاخرة يتهامسون بسير البعض وبأسرارهم الشخصية .

- من سيذهب إلى المتجر ليحصل لَكِ على ما تريدين من أشياء ؟! . . من فى استطاعته إحضار أعواد الكبريت وزيت البرافين ؟ . . من فى استطاعته الحصول على طعام لأطفالك ؟ . . أخبرينى ؟

كانت الوحيدة التى فهمته بالطريقة التى عبر بها عن نفسه .

- طبعاً ، سأعيد مفاتيح العربة لك .

- أخبرينى ؟

- طبعاً . . نعم . . طبعاً .

نظر إليها . . ونظر بعيداً .

- غداً سأذهب لإحضار الدواء لـ « رويس » . . دار حول نفسه للحظة مثلما يفعل شخص نسى الشىء الذى جاء لأجله . انتابهما الشعور باستحواذه عليهما . . لم ينظرا إليه ، كما لم ينظر كل منهما إلى الآخر . . ولم يسمحا لنفسيهما أن يظل ممسكاً بزمام أمورهما .

منظر جانبى للوجه الأسود وبريق العينين . . تعبير متألم حول الفم

العريض والشارب الممتد . . يستشعران الخزى فى دمائهما مثلما يستشعر «يوليو» العار فى دمه . . إحساس بدائى غريب ومعقد يربط بينهما وبينه ، وشعور مؤلم يتقاسمونه فى قسوة . . . لا يستطيع أحدهم منفرداً أن يختبره ويحتمل تبعاته .

فجأة ، حركة فى المشهد الممتد ، اهتز لها الهواء الساكن بالخارج . . «فيكتور» والصبية كانوا فى سباق عند مدخل الكوخ . . يثرثرون ويتصايحون .

- الماء فى الصنبور . . الجميع هناك يملئون صفائحهم . . أسرع يا أبى !

الوجوه السوداء فى رفقة « فيكتور » كانت تضىء بإثارة مرتقبة .

- هذا الماء لهم « يا فيكتور » . . للجميع . . لهذا السبب رفعت صهريج الماء هناك .

حك الطفل رأسه ، ورفع قدمه العارية الملطخة بالطين ، ودار حول عقب قدمه الأخرى :

- الماء لنا نحن .

أصدقاؤه كانوا يرقبون ما يجرى أمامهم باهتمام . . . وبدءوا فى المشاركة .

- من يملك المطر ؟

كانت أمه التى تميل إلى إلقاء المواعظ وراء سؤاله هذا

- الماء لنا . . الماء لنا . .

كان « يوليو » رفيقاً مع الصبى ، مازحاً ومبتهجا :

- أنت محظوظ ، فوالدك رجل ذكى جداً . . . أمطار كثيرة قادمة ، والجميع سيكونون سعداء بالمطر .

2 لقد تساهلت معه كثيراً هناك ؛ لأنها كانت تخاف أن تفقده ، وتفقد الراحة التى يوفرها لها . . تخاف أن تخوض فى أحزانه الشخصية التى لا تعرف عنها شيئاً ، وكانت تظنها تدور فقط حول ظروفه غير المواتية . . هل أحب امرأة المدينة ؟ . . فكرت فى ذلك . . هل كان يحب إحضارها لتعيش معه بصفة دائمة ؟

مجموعة من الشرائع تستند إلى إيمان ثابت بالطبيعة الثابتة للعلاقات الحميمة بين البشر ، هو ما تعتمد عليه الحياة الإنسانية . فإذا لم يحقق البعض احتياجاتهم العاطفية الطبيعية ، أو إذا حرم البعض الآخر من هذه الخبرة ، فكيف يحق لنا أن ندعى مساواة فى إشباع الاحتياجات الإنسانية ؟! فى الوقت نفسه علينا أن نحذر الخطر الذى يتهدد المجتمعات ، إذا لم يوضع حد تقف عنده درجة الإشباع العاطفى .

هؤلاء الذين يزنون الأمور بالعقل يطالبون بسلطة دينية لا تخلط بين أخلاق الفرد ودرجة التجعد فى شعر فروة رأسه ، أو بين القابلية للفهم والإدراك والشفة الغليظة . . هؤلاء تجدهم متحفزين للانقضاض على أى شىء يمكنهم تحريفه إلى شىء آخر يضعون عليه خاتم الاعتماد . . أيضاً كيف توصل هؤلاء العقلاء إلى الطبيعة الثابتة للعلاقات الحميمة بين البشر ؟ . . ومن قرر ذلك ؟ . .

نحن نفهم سطوة هذه العلاقات بشكلها المتعارف عليه فى حجرات النوم بالمنازل وفى الفنادق التى تسجل نزلاءها بأسماء غير حقيقية . لكن هنا ، فى كوخ الزوجة ، أو فى حجرة بالفناء الخلفى لمنزل فى المدينة ، تأخذ تلك العلاقات شكلها وصيغتها ، وتختلف علاقة التوازن بين الرقة والواجب طبقاً للاختلافات فى المكان الذى يلتقى فيه الرجل والمرأة ، وفى النظام الاقتصادى الذى يعيشان فيه .

أمسكت « جينا » فى يدها بقطعة صلصال كانت تشكلها على هيئة ثور، وتركتها لتجف فى الشمس . . . إن الشىء المجرد يزيد من قوة احتمالنا لما نحسه ونلمسه . . حتى الموت يمكنه أن يدخل فى صفقة بيع وشراء ، فأحد شركاء « بام » استطاع دفع تكاليف موته داخل طائرة تحطمت به ، لكن العجوز أم « يوليو » التى شاهدتها « مورين » تتقدم فى بطء نحو الكوخ حاملة فوق رأسها خشب الشجر والعشب الجاف يتزايد انحناؤها نحو الأرض ، يوماً بعد يوم ، إلى أن توارى التراب فى نهاية الأمر . . . وهو الموت الوحيد الذى تستطيع تحمل تكاليفه .

المفاتيح فى حوزة « مورين » طوال الليل ، منذ أن أحضرت حصير العربة . سمعت صوته وضحكته العالية ، وشاهدته يعبر الكوخ إلى زريبة الماعز وسط بشر يتمركزون حول النوع نفسه من النشاط وكل فرد منهم شاهد على الآخرين؛ لذا تجدهم يتسمون بالحذر والتعقل . الأطفال فقط مرتبط بعضهم ببعض ، يتحرك الطفل منهم كالنحلة التى شاهدتها « مورين » ترتفع فى السماء وتهبط لتنتقل من شجرة لأخرى قبل أن تركن إلى واحدة منها . لم تدخل كوخه قط ، لكن « بام » رافقه إليه مرة ، ورأى بعض الأشياء التى أخذها « يوليو » من المنزل هناك ، فهو لا يمكنه العيش مثل الآخرين .

رجعت بذاكرتها إلى الفناء الخلفى والجراج . حجرته على بعد مائة قدم فى الجانب الآخر من الفناء . كانت تلوح بيدها لأصدقائه ، الذين يزورونه دائماً، عندما تشاهدهم من خلال الباب المفتوح فى الصيف ، أو عندما تسمع أصواتهم شتاء وهم مجتمعون حول السخان الكهربائى الذى زودته به . كانت تقترب من مقره فى كل مرة تأتى إلى الجراج لكى تخرج بعربتها ، لكنها لم تدخل حجرته إلا فى مناسبات نادرة . . عندما مرض ، طرقت الباب ، ووقف أصدقاؤه الذين يجلسون حوله فى احترام ، وعلى سرير نظيف وضعت صينية عليها طعام خفيف جهزته بنفسها من أجله .

من الواضح أن « يوليو » شيد كوخه هذا لنفسه بعيداً عن النسوة ، وهى المرأة البيضاء التى كان يعمل لديها وبينهما علاقات عمل . . من المؤكد أن هذا كل ما فى الأمر .

مكثت أكثر من أسبوعين على بعد خطوات من الكوخ . . ويمكنها أن تعيش للأبد دون أن تدخله وترى الأشياء التى أعطتها إياه : ملصق مدينة «مالاجا » وغطاء السرير الأخضر عليه رسومات لدولفين وحورية الماء وإله البحر وخريطة على شكل دائرة للعالم القديم . . مثل هذه الأشياء التى كانت معلقة فى غرفته بفناء المنزل وغيرها ، كان عليه أن يعلم أنه عندما أعطته أشياء جديدة ، فقد أعطتها إياه لأنها رديئة الصنع ، وقبيحة الشكل بالنسبة إليها . . وأنها عندما أعطته أشياء قديمة فذلك لأنها كانت غير ذات قيمة بالنسبة لها . أوقفت «رويس» الذى كان يجرى هنا وهناك لفترة طويلة .

- اذهب لترى أين « يوليو » .

رجع « رويس » وفريقه وهم يلعبون بأعواد البوص الجاف لعبة الفارس والجواد .

- هل وجدت « يوليو » ؟

- نعم . . فى منزله .

- سيحضر إلى هنا ؟

- يقول . . يمكنك أن تذهبى إليه هناك .

جلست تحت الشمس التى تحرق الجلد وتجفف الثياب المبللة . منذ أمس الأول فاجاتها الدورة الشهرية قبل موعدها بأسبوع . ووضعت تحت الثوب وبين ساقيها قطعاً من النسيج القطنى الذى تضعه عادة النسوة طوال أيام الدورة . ذهبت إلى النهر لتغسل قطع النسيج القطنى الملوثة بالدم . لم تفكر فى خطر البلهارسيا وهى تنظر إلى سريان دمها كدخان أحمر فى مجرى النهر ، ومشيراً إلى مرور شهر من عمرها .

- تريدين ؟

ما يزال طفلها الأصغر يحتاج إلى مشاركتها فى استمتاعه بحبات الفول السودانى النىء . .

- إذا لم تنته ، فسأعالج لك الباقى بالملح ، فيكون له مذاق طيب .

- مثل مذاق علب المتجر ؟

- نعم .

ضرب الطفل الصغير الأرض بقدميه ضربات إيقاعية . . وبينما هو يأكل حبات الفول السودانى كان يهمهم بأناشيد صغيرة ، وسريعاً ما يتوقف عن الهمهمة بها ، فهى لا تناسبه بعد أن كبر وتجاوزها ، تماماً مثلما امتنع من قبل عن حلمة ثدى أمه . . كان يبدو عليه أنه يفهم ما يقوله الأطفال السود . .

التقط عبارات بسيطة المفردات والتركيب ، ذات طابع طقسى واحتفالى واستمر فى التغنى بها وهو يلعب .

- اذهب ، وقل له : أنا أريد أن أراه .

فى بعض الأحيان ، كانت تلاطف طفلاً صغيراً ليقترب منها ، لكن غالباً ما تكون ملاطفتها تلك أمراً غريباً غير مألوف له لكى يثق فيها ويطمئن إليها .

لم يرجع الأطفال . . تصورت أنها سمعته يغنى ضمن أصوات تردد إيقاعاً رتيباً يصاحب القيام بعمل فى الأرض . . رأته قادماً يسير متثاقلاً . لا شيء فى هيئته يدل على غضب أو استياء . . تريد إحراز نصر صغير بأن يمثل بين يديها . ارتجف شيء بداخلها كشف عن بثور وقروح تختفى خلف المظهر الأملس الناعم . . تحولات فجائية تحدث فى عمق روحها تتحول بها من موقع الظالم إلى موقع الضحية . . تحولات تحدث فى عمق روح زوجها وأطفالها . .

تحدثت إليه كأنها هناك فى المدينة حول أشياء منزلية تمس حياتها مساً وثيقاً ، ولم يكن بإمكانه فهمها ، لكن عليها أن تقف على قدميها فى ثبات .

- هذه هى المفاتيح .

للحظة رسمت يده صورة يد فى حالة أخذ وتقبل عطاء . تراجعت الأيدى . . أصابع يده اليمنى اتخذت شكل قبضة أطبقت على صوت صلصلة المفاتيح وأسكتتها .

ارتفع بذقنه قليلاً ، مستشعراً ما إذا كان « بام » فى الكوخ . . صمتها أجاب : لم يعد بعد . عرف كلاهما أن الثالث ذهب مبكراً للإتيان بصيد

لطعامهم من مجموعة خنازير برية تتجول فى مكان ليس ببعيد . وقف . . كانت وحدها فى الكوخ . . هو وهى . . تسلل إليه خيط شعور : هى لم ترفض القدوم إليه ، فقط لقاء حيث لا أحد . . لم يكن جديداً ذلك الشعور الرقيق الغامض، وكانت الحاجة إلى تفسير ما لم يدر الحديث حوله ، أمر اعتاده كل من جمعته علاقة بآخر .

– لا تحبين أن أحتفظ بالمفاتيح معى . . أليس كذلك ؟! . . أنت لا تحبين ذلك .

بدأت تهز رأسها وذراعيها المتصالبين تحت ثدييها . . ضاحكة ، كاذبة ، محتجة ، و تطلب وقتاً للتفسير .

– أنا أعمل لديك . . خادمك . . دائماً معى مفاتيح منزلك ، عندما تذهبون بعيداً فى إجازة أحتفظ بالمفاتيح فى حجرتى . . كل المفاتيح كانت معى . . أليس كذلك ؟

– « يوليو » . . أريد أن أقول .

كانت أصابع يديه مفرودة يصد بها ما قد جال بذهنها عنه .

– فى منزلك . . أنا الذى يعرف ما إذا كان شىء قد فقد منك . . أليس كذلك ؟ . إنه أنا الذى يحتفظ بالمفاتيح . . دائماً أنا .

– « يوليو » . . أنت لا تسأل .

– خادمك هناك فى المدينة . . كنت تثقين بخادمك لخمسة عشر عاماً .

– طبعاً أثق بك .

اقترب أحدهما من الآخر . . وضعت يدها فوق ذراعه .

- لا . . لا . . أنت لا تحبين أن أحتفظ بالمفاتيح .

- « يوليو » . . أنت لا تسأل . . أنت فقط تتحدث وتقول . . لماذا لا تدعنى أتحدث وأجيب !

رجع برأسه إلى الخلف لكى ينظر إليها .

- ماذا ستقولين ؟ . . تقولين لكل شخص إنك تثقين بخادمك . . سيدة طيبة أنت وخادمك طيب .

- كف عن قول هذا .

دائماً تتحدث بلطف . . تدفع الغرامة عندما يلقى القبض عَلَىّ . . عندما أمرض تحضر لى الطبيب . .

ضحك ضحكة أشبه بصرخة . .

- أنت قلقة بشأن مفاتيحك . . عندما تذهبين بعيداً كنت أرعى كلبك وقطتك وعربتك التى تتركينها فى الجراج . يجب ألا أنسى سقاية نباتاتك . دائماً تقولين لى حتى آخر دقيقة وأنا أحمل حقيبتك : اعتنِ بكل شىء يا «يوليو » . . تحضرين لى هدية لطيفة عندما تعودين . . تنظرين فى كل مكان لترى ما إذا كان كل شىء كما تريدين . أنا لا أقول إنك سيدة غير طيبة ، لكن لم تقولى إنك تثقين بى . . تنظرين وتسألييننى أن أخرج جميع كتبك وأنظف مكانها حينما تكونين فى الخارج . تخافين ألا أعمل بما فيه الكفاية .

- إذا كنتَ قد شعرت أنه يجب ألا أسالك عن نظافة رفوف الكتب فى ذلك الوقت ، فلماذا لم تقل ذلك ؟ ما الذى كنت تخشاه ؟ . . كان من

الممكن أن تخبرنى . لم أطلب منكَ عمل شىء ليس لك أن تفعله . أنا أخطىء أيضاً . . قل لى ، إذا حدث وعاملناك معاملة غير طيبة . . دعنى أعرف . . حقيقة أريد أن أعرف .

– السيد . . يرعى مشاعرى . . لكن أنتِ لست كذلك . أنا رجل أعرف جيداً ما يجب أن أفعله . . وعندى ما يشغلنى غير أشيائك وكلبك وقطتك .

– السيد . . « بام » ليس سيدك . لماذا تتظاهر بذلك ؟ نقدرك كرجل ناضج . . يا إلهى ! لا أستطيع أن أصدق . . خمسة عشر عاماً تعمل لدى كل يوم . . ضايقتك وضايقتنى . . هذا يحدث بين الناس .

خففت من حدة انفعالها .

– لكن نحن لا نتكلم عن ذلك . لا صلة لنا بذلك الآن . . لقد انتهى كل شىء .

اضطربت عيناه .

– تقولين . . انتهى كل شىء . . كيف ؟

– قضى الأمر . . أنت لا تعمل لدى بعد الآن .

– لن تدفعى أجرى هذا الشهر ؟

– أدفع لك أجراً !

ومضت عيناها والتمع بريقها ، ومضى هو فى ادّعاء نوع من عدم الاهتمام بالقسوة والضجر فى كلماتها .

– يمكننا أن نعطيكَ ما تعودت أن تحصل عليه . . لكن لن نستطيع أن نعطيك أجراً .

– الإفريقيون يحبون النقود .

– أنت تعلم جيداً ماذا أعنى . . الأمر مختلف هنا . . أنت لست خادماً .

– أنا خادم منزلك . . أليس كذلك ؟

– ما جدوى الاستمرا فى ذلك ؟إنها ستمائة كيلو متر تفصلنا عن هناك . حركت ذراعها بقوة أمام وجهه ، فى إيماءة تشى بذلك الأمر الذى وقع وتوارى فى منطقة الأشجار .

– لو أسأت إليك . . لو جرحت كرامتك . . لو أن مشاعرى التى أحملها لك قد خدشت مشاعرك . أنا لا أعرف . . لم أعرف !! ويجب أن أعرف .

الذراع ذاتها تدلت إلى جانب جسدها . . لم تعرف ما إذا كان قد فهم الكلمات . نحت جانباً ما اعتادته لخمسة عشر عاماً من ترجمة ما تريد إلى أبسط مفردات اللغة وأكثرها تحديداً . إذا هى لم تكن قد استخدمت قبل الآن كلمة « كرامة » فى حديثها معه . . فلم يكن ذلك اعتقاداً منها أنه لن يفهم مضمونها ، وإنما لأنها فقط الكلمة التى ربما لا توجد فى قاموس مفرداته .

– إذا أنا طلبت منك المفاتيح . . فهى ليست مفاتيح المطبخ . . المفاتيح معك ليست بصفتك خادما ، وإنما كصديق عليه أن يسأل ليأخذ ما يعطونه إياه . . وعندما يريد شيئاً مرة أخرى ، عليه أن يسأل . .

المفاتيح فى راحة يده .

– ها هى ذى ، خذيها . . ليست مفاتيح مطبخك . . خمسة عشر عاماً أعمل فى مطبخك ومنزلك من أجل زوجتى وأطفالى الذين يجب أن أعمل من أجلهم . . خذيها .

– إذا كان ما تفكر فيه هو ما قد حدث هناك . . ماذا عن « إيلين » ؟ كان وقع اسم امرأة المدينة عليه مروعاً . . وهو أمر يتطلب جرأة للخوض فيه .

– ماذا يحدث « لإيلين » ؟ . . زوجتك وأطفالك كانوا هنا ، وكل تلك السنين كانت « إيلين » معك . أين هى ؟ . . هل تقبل على شىء تأكله ، ومكان تأوى إليه هناك ؟ . . كنت كثير الاهتمام بزوجتك . . ما شعورها تجاه « إيلين » ؟

مثل متبارزين ، كان كل منهما يتحسس أنفاس الآخر ، قبل مواصلة النزال . . وكمشاركين فى مؤامرة ، لم يكن فى استطاعة أى منهما الفرار مما يعرفه أحدهما عن الآخر . كانت تحاول إخفاء نصرها الصغير عنه خلف صفحة وجهٍ تبدو خالية من غيوم .

شملته رجفة تحدٍ لاحظتها فى علامات اضطرابات فى وجهه وعنقه . أدركت أنه لن ينسى لها ذلك . ارتد إليها نصرها الصغير الذى حققته .

بغير اهتمام ، أجاب الخادم عن سؤال لسيدته يتعلق بواجباته تجاه حياته :

– ربما ذهبت « إيلين » إلى عمتها التى تعيش فى قرية صغيرة منعزلة فى «بوتسوانا » تشبه قريتى هذه .

وضع المفاتيح فى جيبه ومضى . . كان يحرك رأسه يمنة ويسره كرئيس عمال يتفقد سير العمل فى مصنع ، أو كفلاح يعطى ملاحظاته على ما تحتاج إليه الأرض من فلاحة . فى صوت عال قدم نصيحة لامرأة هنا ، ووجه سؤالا لرجل يصلح إطار دراجة هناك . . وهتف مهللاً للشاب الذى كان يعلمه قيادة العربة ، والذى كان واقفاً هناك فى صمت كحارس يرتدى البنطلون « الجينز » الأزرق ، وعقداً من الخرز حول عنقه النحيل .

3

بعد الظهر من كل يوم ، كان الرجل الأبيض يرقب مجموعة الخنازير البرية بذيولها المرتفعة فى الهواء ، وبظهورها الملطخة بالطين ، وهى تنتقل فوق مساحات العشب بحثاً عن غذاء . . . مشهد مفضل لسائح يجلس واضعاً الساق على الساق وفى يده كأس الشراب ، ناظراً من نافذة بيت ريفى مكيف الهواء .

كان القطيع مكوناً من خمسة خنازير صغيرة ، واثنتين من الإناث ، وذكر ضخم بـأنياب كبيرة وأنف يشبه محرك قاطرة بخارية . . الرجال السود بغير بنادق فى حوزتهم يخافون الأنياب . والخنازير فى بحثها عن غذاء لم تعط أهمية تذكر إلى ذلك الشعور الغريزى بعدم ثقتها فى الطبيعة الحيوانية للبشر . . تتبع النبات والعشب أينما كانا ، وتقترب من الأكواخ بأجسامها الثقيلة التى تشبه فى هرولتها مشية امرأة عجوز متأنقة ترتدى مشدات للخصر والردفين .

أخرج « بام » البندقية من بين أعواد البوص الرطبة ، وغادر الكوخ متوجهاً إلى « يوليو » ومواطنيه القرويين . لم يكن يعلم أن الجميع عرفوا بأمر البندقية من الأطفال . . بعض النسوة ابتسمن وغالبيتهن تجاهلنه . فى الوقت نفسه كان الأطفال يكونون قافلة يرأسها ابنه « فيكتور » الذى يمسك

بيده عصاً خشبية فى زهو . دائماً كان « يوليو » يخشى الاقتراب من البنادق بعد عودة مستخدمه « بام » من رحلة صيد ، كان يفرغ أدوات الصيد فى فناء المنزل ، وعلى عجل وفى خوف مشوب بالحذر يأخذ مجموعة البنادق ويذهب بها إليه . اعتقاد « يوليو » بأن كل شيء بأمر الله جعله لا يرفض التعامل مع البنادق التى يخافها خوفاً لا يدرى له سبباً . . لكن صديقه الشاب الذى يرتدى العقد حول عنقه أظهر اهتماماً وأراد أن يمسك بالبندقية . . بين له «بام» كيف يصوب على هدف متحرك ، وشرح له طريقة حشوها بالطلقات النارية .

- هل قمت بإطلاق النار من قبل ؟

هز الشاب رأسه ، وضحك آخرون من جهل الرجل .

- أقرأ عنه .

جاءت عبارته فى الزمن الحاضر لتدل على معرفة قليلة بالإنجليزية أهو عضو فى عصابة أم أنه قرأ بعض المنشورات السرية التى توضح كيفية التعامل مع الأسلحة النارية ؟ . . هذه المنشورات التى توزع على نطاق واسع وتغطى مساحات شاسعة من البلاد خلال السنوات العشر الأخيرة . فى كل محاكمة سياسية تعقد للسود كان ممثل الادعاء يجد فى هذه المنشورات دليل إدانتهم .

- سأجعلك تجرب ذلك . . ما اسمك ؟

- « دانيال » .

صوب إلى نفسه البندقية التى كانت مؤخرتها فى يدى « بام » إلى أن أصبحت ماسورتا البندقية وعيناه على خط مستقيم . تجويفان من الصلب

الأزرق نظيفان ولامعان . . شيء أكثر كمالاً من كل الأشياء الأخرى فى موطنه أو فى أي مكان آخر . . ركز كل تفكيره فى هذه اللحظة بدون أن يلقى بالاً إلى ما حوله ، وفى صوت جاد مفاجىء ، استعاد نفسه ثانية . ربما لم يصدق أن الموت أنيق وأملس إلى هذا الحد ، عندما نظر إليه فى تجويف البندقية . ربما سنوات عمره القليلة هى السبب وراء شكه فى حقيقة وجود الموت .

انتظر « بام » فى مخبئه القريب من مكان تجمع الخنازير البرية . شاب صغير فى الرابعة عشرة ، اختاره ليكون معه . فكر فى وسيلة لإبعاد «فيكتور» عن واقعة الصيد ، لكنه وجد صعوبة فى أن يحرم طفله من شيء يسره .

- أعدك بأن تحتفظ بجلد الخنزير لنفسك . . واحد من أقارب « يوليو » سيعلمنا كيف نعالج الجلد ونصونه .

- و إذا لم تحصل على شيء ؟

صاح الصبى محتجاً : ماذا ستعطينى ، إذا لم تحصل على شيء ؟

لم يعره التفاتاً . . تابع سيره فوق العشب الرطب حاملاً بندقيته و إلى جانبه الشاب . خبر « بام » الصيد فى رحلات إجازة نهاية الأسبوع الترفيهية ، كما خبر الحذر والترقب عندما كان يخشى اقتراب قوات الدورية الجوالة . . لكن إطلاق نيران البندقية الآن قد يفشى مكان وجود عائلة بيضاء مخبأة فى أحد الأكواخ .

بين أعواد الذرة انتظر « بام » والشاب الأسود الذى أظهر عبوسَ وجهه ضيقاً من لدغات البعوض . مجموعة الخنازير البرية تراءت لهما فى موقع يعطيهما فرصة للفرار عند أول بادرة خطر . أطلق « بام » نيران بندقية على

أقرب خنزير صغير . اللعبة القديمة ذاتها . . . تجعل من القتل تسلية ومسرة . . لعبة القتل الدائرة هناك فى المدينة بالقرب من منزله . . سقط الخنزير الأول وأصيب الآخر ، واختفت بقية الخنازير .

أظهر الصبى مهارة صياد ، وثب إلى حيث الخنزير الأول ، وبحبل ربط قدميه معاً . أصابه الطلق النارى بين عينيه فى مقتل ، وسريعاً كف عن الحركة . . الخنزير الثانى المصاب كان يتلوى من الألم ، والصبى الأسود جالسٌ القرفصاء فى انتظار موته . أشار إليه « بام » بيده لكى يتنحى جانباً ، ثم أطلق عياراً نارياً هشم عظام الرأس . . منظر يثير الروع والرهبة . . وجه الخنزير الملطخ بالدم وقطع العظم تنزف دماءً تنتشر فوق العشب . لم يكن ذلك هو الموت الأنيق الأملس الذى ظهر فى تجويفى ماسورتى بندقية تَشيع منها رائحة زيت التنظيف وتلمع بطبقة من طلاء الكروم .

لعبة القتل التى اعتادها مع الطيور كانت بغير وجوه . لا تختلف أشكال الطيور كثيراً وهى مصابة بطلق نارى عن أشكالها وهى على قيد الحياة . فوق الأرض المعشبة يستند وجه الخنزير المهشم ، والشاب الأسود يجره ممسكاً به من ساقيه على طول الطريق إلى الأكواخ التى عرفت قدر « بام » باعتباره واحداً ممن يوكل إليهم مهمة جلب اللحم .

كان يعلم جيداً أنها ستبدى ملاحظة أو تعاطفاً . رفع يده طالباً الكف عن الكلام . لأول مرة أدرك كونه قاتلاً . . وعلى الرغم من أن « يوليو » وأقاربه سيقومون بسلخ الضحية وتقطيعها أدرك أنه جزار يرتدى حذاء من المطاط يخوض به وسط الدم ونفايات المجزر . . نوع من الارتياح - لا يريد مناقشته أو التحدث بشأنه - سيغمره إذا هو لاقى مشاركة وتعاطفاً .

لكن « مورين » وقفت على مقربة منه واضعة يديها حول خصرها . . . قدماها وساقاها كقدمى وساقى متشرد .

- أَعْطِهم الأكبر حجماً .

لم يكن فى حاجة إلى نصيحة تتعلق بعدالة فى التوزيع ، أو إلى تفسير لقانون البقاء .

همست فى أذنه : الأصغر حجماً مذاقه أفضل !

إلى جانبه وضع « بام » الخنزير الأصغر ، وحمل الشاب الأسود الخنزير الآخر إلى الأيدى التى كانت فى استقباله عبر المدخل المظلم للكوخ . أفخاذه الطرية تترجرج بين أيديهم كرجرجات أثداء النسوة وهن يضربن عجين الذرة بأيديهن فى قوة .

بالملح فقط ، فى غير وجود البصل والفلفل وغيرها من متبلات الطعام ، قامت « مورين » بتتبيل لحم الخنزير البرى الذى لم يتذوقوه من قبل . هى وزوجها وأطفالها لم يحدث لهم أن مر أسبوعان عليهم بدون تناول اللحم . تصاعدت رائحة الشواء من مواقد الأكواخ . . نهضت الكلاب من مجثمها لتبدأ عراكاً لمجرد اشتمامها الرائحة . . القطط التى تجمع بداخلها بين التوحش والجبن ، تحلقت حول « مورين » وهى تجهز الطعام محدثة جلبة وضوضاء على نحو متصل . . كانت « مورين » تسبح فى العرق والدخان تطلب ممن حولها الانتظار . . . كانت مرتبكة وضاحكة من نفسها ، فى حين كان « بام » يتولى عنها عمل شىء .

لم يأت إلى علمهم أن اللحم يمكن أن يسكرهم مثل الشراب . . . يأكلون فتدب فيهم النشوة ذاتها التى خبروها من احتساء النبيذ بين

الأصدقاء حول المائدة . غنى « بام » لـ « رويس » أغنية فكاهية باللغة الإفريكانية . « جينا » متهدجة الصوت غنت أغنية تغرى الأطفال بالنوم ، تعلمتها من صاحباتها بلغتهن . . أصبح « فيكتور » راوية يسرد الحكايات والقصص من الماضى والحاضر .

– هل تعرف ماذا نفعل بالمدرسة يوم الجمعة عندما ينصرف الصبية الكبار ، ولا يكون هناك من يترأسنا فى الفناء ؟

كانوا سكارى يقهقهون . . ويتهم بعضهم بعضاً وينكرون فى زهو . . والأطفال يقلدون ضحكات الكبار .

منذ أن أخذت العربة منهم ، لم يمارسا الحب معاً . . أمر لا يمكن التفكير فيه وهما ينامان مع أطفالهما الثلاثة فى كوخ بابه ليس أكثر من قطعة من الخيش ، فافتقاد الخصوصية يقتل الرغبة . ربما الاستغراق فى مسائل يومية غريبة عليهم تتعلق بصراعهم من أجل البقاء تدفع مثل هذه المشاعر بعيداً . توتر العلاقة بينهما أخذ شكلاً أقرب إلى صوت الموسيقا العسكرية الصاخبة التى تصدر من جهاز الراديو فى كل مرة يديرون فيها مفتاح التشغيل . . إحساس قوى بعدم الارتياح منذر بشر ممزوج بفرح وقتى بالنجاة كلما استمعا إلى بلاغات المعركة الدائرة فى المدينة .

رائحة الدهن واللحم لا تزال ملتصقة بأصابعهما . . كان من الصعب أن يحفظا توازنهما على المقاعد بالكوخ . وأن يطوق أحدهما الآخر بذراعه وأن تسترخى يد على مقربة من الوجه . . . تعانق الجسدان وامتزجا فى اختلاجة ورعشة . . . ومن حولهما كانت أنفاس أطفالهما وأصوات الصراصير والفئران . . . وظلمة الكوخ ، والقرية النائمة ، والعشب والأشجار والليل .

الفصل الخامس



1

- لحم طيب !

كانت المرأة العجوز فى السن التى يتظاهر فيها الناس أن لا شىء يسر أو يبعث على البهجة ، وكأنهم يلقون اللوم على هؤلاء الذين سيطول بهم العمر من بعدهم .

- منذ متى لم تتناولى مثل هذا اللحم الطيب ؟

لم تُبْدِ قليل اهتمام .

- يذهب اللحم سريعاً . . نأكله ولا شىء يبقى منه غداً . . أريد سقفاً جديداً لبيتى كى يقينى من هطول المطر .

- سيكون لكِ ما تريدين .

ببعض رماد الموقد كانت زوجته « مارتا » تجلو القِدْر المعدنى الذى جاءها به فى إجازته قبل الأخيرة .

- سأبنى لكِ بيتاً جديداً . . لا تشغلى بالك بهذا . . سأبنى لك آخر جديداً .

- سيجلبون علينا المشاكل ، لا بأس بهؤلاء الناس ، فلا شىء بينى وبينهم . . لكن المستوطنين البيض يجلبون المشاكل .

لم تكن تنظر إليه ، فلم تتبين غضبه .

فى صوت كقرع الطبل ردد ما كان دوماً يقوله :

- أية مشاكل . . من أين ؟

أدركت أنها لا يمكنها أن تقول ما قالته له من قبل : مشاكل مع البوليس والحكومة .

فى ضحك ممزوج بصوت نخير ، بدا كمن سيترك المرأتين فى جهلهما ، لكنه استدار ونظر إليهما . . وكمن يلقى بحجر فى بحيرة راكدة .

- عندما أقول يذهبون عليهم أن يذهبوا . . وعندما أقول يمكنهم البقاء عليهم أن يبقوا .

تابعت زوجته فرز حبات الفاصوليا الجافة . . نبرات صوتها تحمل شيئاً من فضول .

- المرأة البيضاء ، هناك فى المدينة . . هل كانت تقول لك . . عليك أن تطبخ هذا أو تنظف تلك ؟

- لا أحد يمكنه قول أى شىء . . عندما أقول . .

كانت تومىء برأسها إلى نفسها ، كأنه غير موجود أمامها ، كعادتها عندما كانت تخاطبه أثناء غيابه الطويل . . زودتها محادثاتها معه بأسئلة وإجابات ليست من نوع الأسئلة والإجابات التى تتبادلها مع الآخرين . فى بعض الأحيان كان يختفى عاماً ولا تعرف عنه شيئاً . . فكانت تملى خطابات له عن طريق من يمكنه الكتابة أفضل منها . . وقد مكنتها السنوات الثلاث التى قضتها بالمدرسة من أن تقرأ خطاباته لها .

غالبية النسوة اللاتى فى عمر الإنجاب لهن أزواج قضوا أكثر عمرهم فى تلك المدن التى لم يسبق لهن رؤيتها . . وحول غيبة الزوج كان حديث الزوجات لا يخرج عن مجموعة من الجمل والعبارات : أرسل الزوج خطاباً أو لم يرسل ؟ وصلت الحوالة البريدية بالنقود أو تأخرت هذا الشهر؟ ترك عمله ويعمل فى مكان آخر ؟ من النادر أن تتحدث امرأة إلى امرأة أخرى عن الأسئلة والإجابات التى تبادلتها وزوجها فى محادثة لم تجر إلا فى خيالها . . . حتى لو كانت هذه المرأة الأخرى هى العجوز أُم زوجها « يوليو » التى خبرت الشىء ذاته ، وكان لها رجل قضى ثلاثين سنة فى المناجم .

على مدى الفصول ، وبدون رجل ، تزرع المرأة وتحصد ، فى الصيف الممطر ، وفى الشتاء الجاف ، وفى الأوقات المختلفة التى تتغير حسب كل امرأة وعودة رجلها إلى البيت . تطلع الشمس ، والقمر يغيب . . . النقود يجب أن تأتى فى موعدها ؛ ولذا فالرجل عليه أن يرحل .

قالت زوجته فى عناد وإصرار :

– وهناك فى المدينة . . . هل كان الرجل الأبيض يخبرك عما . .

– لم أقم قط بإعداد الطعام . . كانت هناك امرأة . . الطباخة . . «نومفولا » كانوا يطلقون عليها « نورا » . . أنت رأيتها فى صورة التقطت لنا فى « الكريسماس » مع الأطفال « جينا » و « الصبيين » . . صورة ملونة وحذاء جديد أرسلتها لك من « ألبرت » .

أكملت المرأة العجوز :

– المرأة البدينة ذات القبعة القرنفلية اللون المائلة على رأسها .

– تبدو كمن يحب تناول الشراب بكثرة .

– أهى متزوجة ؟

– فيما أظن . . مات زوجها .

– بغير رجل ؟

نظرت إليه فى انتظار إجابة ، لكنها وجدته يفكر فى أمر آخر هناك ، الصورة الفوتوغرافية للفناء . . الرجل والمرأة « البيض » وأولادهما ، هنا . . . واقع تلمسه ولا تحيط بأبعاده .

– « بونجانى » . . واحد من قبائل الزولو ، يعمل مراقباً فى شركة نظافة . . تجدينه دوماً فوق دراجته مرتدياً زى الشركة . . يشارك « نومفولا » فى غرفتها .

– هم لم يمانعوا فى وجوده بالفناء . . لكن ماذا حدث لـ « نومفولا » ؟ أين ذهبت الآن ؟

جلس فوق منضدة خشبية صغيرة مستندة إلى الحائط داخل الكوخ ، كان يجلس عليها رجال غرباء أتوا للزيارة . مصدر الضوء الوحيد بالمدخل أسقط بصيصاً من نور على أحد جانبى الكوخ ، حيث وجوه النسوة فى لون طين الحائط . . . وعلى الجانب الآخر كان « يوليو » قابعاً فى الظلام ويداه على ركبتيه . ربما هز كتفيه فى غير مبالاة مظهراً جهله بالمكان الذى ذهبت إليه « نومفولا » عندما تساءلت زوجته عما إذا كانت متزوجة ، لم يكن لديه رغبة فى الإجابة ، وكذلك هى . . لكن رجل قبيلة الزولو ، كان الإجابة التى ارتاحت إليها .

فى مكانه بركن الكوخ تكلم :

- لا أعرف أين هى . . ماذا حدث لها . . إذا هى وصلت إلى عائلتها فى . . .

خفتت نبرات صوته . . ارتبك . . كأنما نسى اسم المكان ، أو لم يستطع التفوه به .

2 الأوانى الفخارية التى كانت تجمعها « مورين » لتزين بها منزلها وتجمله ، أصبحت الآن تستعملها فى تبريد الماء وفى أغراض ومنافع أخرى . حشرات، دجاج ، قطط أليفة وأخرى متوحشة تتعقبها مقتفية آثار ورائحة طعام فى يديها وفى خطوات أقدامها . أعداد كبيرة من الهوام والطيور والحيوانات تم إمدادها بتعزيزات أخرى خرجت إلى الحياة من بطن قطة ولود. فوق جوال من الخيش كان يستخدمه « بام » كوسادة استقرت القطة الأم وأولادها . بضربة خفيفة من يده تركت القطط مستقرها إلى جوال من البلاستيك جاء به « فيكتور » و « جينا » لهم . . . جوال من تلك الأجولة التى كان يباع فيها البرتقال هناك فى المدينة .

عند مدخل الكوخ ، عرفته « مورين » بوجهه المتجهم المجهد الحزين مثل تلك الوجوه المألوفة التى تظهر ولأجيال مضت عند الأبواب الخلفية ، سائلة شيئاً مما تجود به الأيدى . . شاهدته « مورين » من قبل وهو يحل خيوط البلاستيك المكونة لأجولة البرتقال الفارغة ليجدل منها حبالاً قوية . أدرك « بام » و « مورين » أنه جاء ليستعيد جوال البرتقال الفارغ الذى سرقه الأطفال .

تحركت نظرة « فيكتور » من فوق وجه الأم إلى الأب . . . حركة خاطفة تشبه حركة يد إلى جراب مسدس .

- كان مُلْقَى على العشب ! . . أعداد كثيرة منه ملقاة تحت الشجرة . . فأخذناه .

« جينا » أصابها الذعر لفداحة الاتهام . . . وعبرت ملامح وجهها التعبير ذاته الذى يبدو عليها عندما تقص حكاية ما أمام أطفال الفصل بالمدرسة .

- جوال فارغ قديم ! . . . من يسرق شيئاً تافهاً كهذا ! . . . نحن أتينا بالجوال الفارغ . . واحد من تلك الأجولة الفارغة القديمة . . . كيف يستطيع المرء أن يسرق شيئاً قد أُلقى به بعيداً ؟

- لكن الأجولة الفارغة هذه يستخدمها فى عمله يا « جينا »

- فِيمَ يستخدمها ؟ . . أى عمل ؟

- يصنع حبالاً . . وهذه خاماته .

كان « فيكتور » غاضباً . . . الغضب ذاته الذى يلوح على وجه رجل أبيض يسبقه بأعوام كثيرة .

- يجب ألا يقول إننى سرقت . . . أنا أخذت فقط شيئاً أُلقى به بعيداً ، ولا أحد يريده .

أعطى « بام » ورقتين ماليتين من فئة « الرند » للرجل . . . وربت بيده على ظهره ، معتذراً بأن على الكبار أن يكونوا أكثر تسامحاً مع تصرفات الأطفال .

بعد مغادرة الرجل جلس « فيكتور » مهدئاً من انفعاله .

- « جى » . . جوال قديم فارغ فى مقابل « رندين » . . بهما أستطيع

شراء قطعة خزف جميلة . . أعطيه أنا بعضاً من هذه الأجولة القديمة إذا دفع لى « رندين » .

ربتت على رأسه :

– لو أن معه « رندين » يدفعهما فى جوال قديم فارغ ، لكان اشترى بهما حبلاً . . أليس كذلك ؟

– « رويس » له طريقته فى الاقتراب من « فيكتور » بثقة وحذر .

– أتريد شراء واحدة من هذه القطع الخزفية « يافيك » ؟ . . أعنى إذا حصلت على « رندين» ؟ . .

– أين يمكن شراؤها هنا ؟ . . من الممكن أن أحصل عليها من سوق «خذ وادفع » .

– أسأل « يوليو » يا « فيك » . . لماذا لا تسأل « يوليو » ؟

انفعل الصبى الصغير فجأة . . واحمر وجهه . .

أنا أعرف شيئاً واحداً . . ليس كل الإفريقيين طيبين مثل « يوليو » . . بعضهم لا يمكن الاطمئنان إليه . . شىء فظيع .

فى حركة مستمرة داخل وخارج الكوخ طوال اليوم ، كحركة الدجاج ، يروح « نيكو » صديق « جينا » ويجىء إلى كل مكان توجد فيه . . جلسا يده فى يدها كعاشقين صغيرين ، ينظران فى هدوء وتَعَقل إلى ضيق « فيكتور » وثورته . حملت « جينا » القطط الرضيعة من حضن القطة الأم وأعطت واحدة لكل منهم ، لكن مواء القطط الصغيرة وبحثها الغريزى عن ثدى الأم ، أغضب « فيكتور » .

قالت « مورين » فى نصح وعتاب :

– من الخطأ أن تأخذيهم من أمهم ، فلم يمض على ولادتهم سوى يومين فقط .

– ربما يعرف « نيكو » لمن هذه القطط . . فنستطيع أن ننقل كل هذا المواء إلى المكان الذى جاءت منه .

نظر « نيكو » إليها بوجه عليه أمارات التسليم بحديث لا علم له به .

عن طريق « جينا » وجه « بام » سؤاله إلى « نيكو » . . قهقهت الفتاة الصغيرة وتكور أنفها وظهرت أسنانها .

– دادى . . يقول : ليست قطة أحد .

– القطط فى كل مكان وعند كل شخص . . مثل البراغيث الموجودة فى كل القطط .

بعد الظهر ، ذهب إلى النهر لصيد السمك . . ترك الأطفال هناك وعاد ليستمع إلى نشرة الساعة الرابعة . . كانت مستلقية فوق السرير . . كان سينتهز الفرصة ويستمتع بخلو السرير والاسترخاء ، إذا ما وجد أن لا أحد غيره فيه . . رآها كما كان يرى نفسه فى بعض الأحيان مستلقياً ، وجال بخاطره صورة سجين فى زنزانته . . أصبح قادراً على النوم فى هذا المكان وقتما يريد . . . فهل فى قدرته أن يخرج بالأطفال منه أطفاله الذين يؤرقهم الانتظار ؟ .

خلت محطة الإذاعة من الموسيقا العسكرية .

استمعا إلى الأخبار . . . تشويش على الإرسال والاستقبال . . . قارىء

نشرة متلعثم . . . أهو من تبقى فى مبنى الإذاعة الضخم ذى الحوائط الجرانيتية ليقوم بهذا العمل ؟

من الممكن أن يكون البث قد توقف من المبنى الجرانيتى ، بعد فترات احتجاب طويلة . . . من المرجح أيضاً ، أن يكون قد تم إخلاء المبنى بالقوة ومتابعة البث من مكان آخر غير معلوم . بصوت جامد متبلد تُقرأ التقارير والتحليلات والتعليق على الأخبار . . فى الليلة الماضية تم تدمير مبانى اتحاد العمال فى « بريتوريا » . . . ربما يكون البيض قد دمروها منعاً لوقوعها فى أيدى السود .

أصبح من المستحيل التحدث عما يجرى هناك ، فقد استمع هو وزوجته فى صمت ، وعندما أغلق جهاز الراديو ، فى غير وعى أمكنه التحدث فى أمور ليست ذات أهمية .

- هل وجدت أحداً يأخذ القطط الصغيرة ؟ . . ليست فى الكوخ .

فى بطء وتكاسل نهضت من سريرها :

- أغرقتهم فى دلو مملوء بالماء .

الحياة فى المدن وضواحيها ، ذات طبيعة مراوغة تلقى بظلالها على البشر فى معاملاتهم اليومية . فى حجرة النوم ، أحياناً ، قد ينتهى الأمر سريعاً بسبب البرود والضيق . . . وفى أحيان أخرى ، تبدأ مناوشات وقبلات تنتهى بممارسة الجنس .

انحنت بجسدها . . . تبدو على هيئة غير مرتبة أو نظيفة . . . مناطق فى الجسد - كانت تستعمل مزيلات للشعر لسنوات طويلة - نما فيها الشعر وكبر . .

« أغرقتهم فى دلو » . . كان قصدها أن ذلك الفعل يليق بالحياة التى يعيشونها الآن .

- يا إلهى !

لوى شفتيه فى اشمئزاز ونفور . .

هرشت جلدها فى منطقة الضلوع أسفل ثديها . خلعت قميصها ونفضته وقالت : لكى يستلقى المرء فوق السرير ، عليه أن يكون بهلواناً حتى يتجنب لدغات البراغيث . وقفت بثدييها المتهدلين كرجل عارٍ يقف تحت دش حمام فى مصنع ، أو كامرأة فى قسم الغسيل بمؤسسة اجتماعية . عنقها أحمر اللون يمتلىء بنمش قاتم . . . لم يكن ليصدق قط أن العنق الجميل تحت الشعر الطويل منذ سنوات يمكن أن يصبح هو نفسه عنق والدها عندما كان يلعب معه « البولنج » فى صباح يوم أحد .

3

تجاهلتها النسوة فى الحقول . . رحبن بها بنصف ابتسامة متعجلة ، فالأرض كانت مركز اهتمامهن . واحدة أو اثنتان أصغر سناً ، ربما تحادثن معاً حولها ، كما لو كانت مصوراً فوتوغرافياً جاء ليلتقط لهما صوراً ، أو كأنها أحد المشرفين الزراعيين جاء من مزارع القمح على بعد مئات الأميال بشاحنة باحثاً عن فلاحات أجيرات .

تابعت سيرها فى الحقول تريد أن تعرف ما الذى يسترعى انتباههن من جذور النبات فيستخرجنه من باطن الأرض . بدت لها أم « يوليو » على وجه الخصوص ، وكأن لها حاسة شم تدرك بها مواضع جذور النبات التى تريد جمعها . لم تكن تتوقع من نفسها أن يكون فى استطاعتها تمييز أوراق السبانخ ونوع أو نوعين من أوراق النبات الأخرى . . شاهدت النسوة وهن يقمن بجمعها ووضعها فى سلالهن . ملأت يديها بما جمعته من الحقول ، ووضعته فى حقيبة قديمة فارغة من البلاستيك ، كانت من قبل تحتوى على سماد للأرض أتى به أحد الفلاحين بعد عودته من العمل فى المزارع . وجاءت بحبل قوى ربطت به طرفى الحقيبة وعلقتها بكتفها مثلما فعلت النسوة اللاتى بغير سلال

من فوق ظهور النسوة حيث يحملن أطفالهن ، جففت أشعة الشمس

لفافات الأطفال المبتلة بالبول الذى انتقلت رائحته إلى الهواء الساخن الرطب. النسوة يرفعن أطراف أثوابهن ، يخضن الأرض الموحلة بأقدامهن العارية والطين الجاف يغطى ما بين أصابع أقدامهن ويمتد إلى منتصف سيقانهن .

رفعت « مورين » طرف ثوبها عن ساقين بهما كثير من الندوب والكدمات والشعيرات الدموية الزرقاء والزغب الأصفر المنتشر . . . عن ساقين لامرأة بيضاء فى التاسعة والثلاثين من عمرها ، كانت تتلقى دروساً فى رقص الباليه. نظرت زوجة « يوليو » التى لا تبتسم إلى السيقان البيضاء وضحكت . . . ولم ترتد ببصرها عندما لاحظت « مورين » نظراتها وضحكاتها . لماذا لا تضحك زوجة « يوليو » هذه بعجيزتها الضخمة وفخذيها الكبيرين اللذين لا يتسقان مع بقية جسدها ؟ . . ضحكت « مورين» منها فى المقابل . لماذا على المرأة البيضاء أن تخجل إذا ما شُوهدت فى لحظة ضعف ؟ . . رحبت زوجة « يوليو » بشخص ما ، وسرعان ما عادت مرة أخرى إلى الأرض مثل باقى النسوة ، اللاتى كن كسرب من الطيور ، يرتفع إلى السماء ويحط على الأرض ، يلتقطن ويجمعن الثمار وأوراق النبات .

تناولت العائلة نصيبها من الخضراوات وأطباق الثريد . لن يقول « بام » شيئاً إذا عرف أنها جمعت الخضراوات بنفسها ، فعندما طلب « فيكتور » المزيد منها أجابه بسرعة :

- أخذت نصيبك . . نحن نبذل جهداً حتى نحصل عليها .

وهى تلوك شيئاً فى فمها ، اعترتها نوبة نشاط مفاجئة ما لبثت أن تلاشت سريعاً . . . رغبة فى رجل هادىء رابط الجأش ، تستند إليه وتعانقه .

بسبب تشويش الصواريخ على الإرسال كان من الصعب سماع البث الإذاعي فى ذلك اليوم ، وللمرة الأولى وجدا نفسيهما يستمعان إلى محطة إذاعة المنطقة الحربية التى أنشئت فى الأصل أثناء القتال الدائر فى « ناميبيا » وامتد إرسالها مؤخرا ليشمل البلاد كلها ، كانت الأصوات تشير إلى علاقة المحطة بقاعدة « ديبكلون » الحربية بين « سويتو » و «جوهانسبرج » . فجأة اختفت الأصوات الأفريكانية الحادة المتعجلة ، وتوقف إرسال المحطة. راقبته وهو يعبث بمفتاح تغيير الموجات الترددية فى محاولة لاستعادة استقبال البث ثانية . أعطاها ظهره كمن يقوم بعمل شىء يبعث على الخجل . . أغلق مفتاح التشغيل واتخذ مكانه فوق السرير .

خرجت من الكوخ ، وتابعت سيرها على غير هدى ، فى الجو الحار وذباب ما بعد الظهر حيث أعواد القش وعلب صفيح قديمة وريش دجاج يلتمع ببريق داكن أَثلى المكان الذى تختبىء فيه العربة الصفراء مقصدها ؟ لا شىء فى العربة ينتمى إليها بعد الآن . أمسكت بغصن صغير هش ، وراحت ترسم خطوطاً على الأرض . . . أهال النمل التراب الأحمر على أغصان الحطب الجاف الميت ، والتهم حبات القمح ولم يبق إلا على القشرة الخارجية وهاجمت جماعات منه جذع شجرة لتسقط عنه اللحاء وتحفر فيه أخدوداً عميقاً . كانت « مورين » تحفر وتحفر فى أديم الأرض كطفلة . . وعلى غير هدى ، تابعت سيرها . . . العربة لا تزال فى مكانها .

– ما المشكلة ؟

صوت « يوليو » غليظ ومنهك .

– هذه الماسورة ككل مرة مربوطة بغير إحكام .

- ماسورة العادم .

أخرج جسده المنبطح على الأرض أسفل العربة . . . طرفت عيناه وهز رأسه لينفض ما علق بها من أعواد القش والتراب . . مبتسماً فى شىء من دهشة وسخط .

- هذا الشىء . .

وجه سؤالاً إلى « دانيال » الذى لا يزال أسفل العربة . . وبيدين لوثهما الشحم ، وبغير تردد وفى إصرار ، تقدم ناحية عربة أصبحت ملك يمينه :

- لدينا ذلك السلك القوى فى المنزل .

أومأت برأسها . . لفة من السلك بعيدة جداً هناك فى مكانها بالجراج بين الفحم النباتى والمنجل .

ضحك

- لو أن معى بعض الأسلاك المعدنية هنا !

- لا أدرى ما إذا كان قد تبقى شىء !

- نعم . . كل شىء هناك . . عندما نذهب سأضع قفلاً كبيراً على باب الجراج . . . أنا أغلقته جيداً .

أسند ظهره إلى العربة . . . مزهواً بمشاعر الامتلاك ، نسى الذين على حساب خسارتهم كانت حيازته وملكيته .

- لا بد أن القتال الدائرى فى غاية السوء .

- هل سمعت شيئاً ؟

- لا نسمع الراديو كثيراً . . توقف الإرسال . . ربما انفجر المبنى الذى به محطة الإذاعة الخاصة بالجيش .

بالنسبة إليه ، هناك دائماً شىء ما يمكن التحدث بشأنه . . . تركيبة الخادم المعدل لالتقاط صدى صوت السيد واهتماماته ، والابتعاد بلباقة عن كل ما يخالف إرادته السامية .

- ماذا يمكننا أن نفعل ؟ . . شىء لا يحتمل . . . كل شىء يسير إلى الأسوأ : قتل ، حرق ، فليساعدنا الله . . . فقط علينا أن نأمل أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه .

- تعود ؟

أدركت أنه لا يريد التحدث إليها إلا بالطريقة ذاتها التى يتحدث بها .

اتسعت شفتاه المغلقتان ، وانخفض الجفنان مثلما يفعل عندما كانت تلقى عليه أمراً هناك ويقبله بغير نقاش برغم عدم ارتياحه له .

- لا أريد سماع شىء عن القتل .

- لكنك لا تعنى ذلك ، أليس كذلك ؟

خرج « دانيال » بجسده الرشيق من تحت العربة ووقف جانباً . ألقت نظرة عليه موافقة أن تكون مصدر حديث لهما معاً ، فهو أيضاً لديه ما يقوله لها . أومأ لها محيياً . تحدث إليه « يوليو » وتبادل معه عدداً من الأسئلة ، وأصدر له أمراً على إثره انصرف الشاب ذاهباً فى اتجاه الأكواخ ، ربما ليفتش عن شىء مرتبط بإصلاح العربة .

ولكن عندما ابتعد الشاب بنحو عشر ياردات ، عرف كلاهما أن ذلك

كان ذريعة لإبعاده . . كما أدركت « مورين » أنها كانت قد قررت الحضور بحثاً عنه . ها هما الآن – وبدون عون خارجى – أمام دليل مادى يشير إلى أنهما على انفراد مرة ثانية ، كما كانا عندما حضرا إلى الكوخ وأدركتِ ساعتها أنه ينظر خلفها لكى يرى ما إذا كان أحد بالداخل .

كانت كأنما ظهرت أمامه فى هذه اللحظة فقط . . كأنهما كانا صامتين ولم يكونا يتحدثان . .

– سوف يعترينى القلق .

تعرف استعماله للزمن فى الحديث . . . كان يقصد « أشعر بالقلق » .

– أنت جائعة . . تشعرين بالجوع ؟

ابتسمت فى دهشة وريبة :

– لماذا تقول ذلك ؟ . . لا نشعر بالجوع . . نحن فى حال طيب .

– لا . . لا . . عليك أن تذهبى وتبحثى عن أوراق السبانخ مع النسوة .

جاءته الإجابة :

– أذهب ؟! . . ليس على أن أذهب .

ابتسم :

– ليس هذا عملك .

اعتاد أن يغلق بوابة المنزل وراءها بعد خروجها إلى عملها كل صباح . . كانت تلوح بيدها ، تحادث أصدقاءه العابرين فى الشارع ، وهى تقود

سيارتها فى طريقها إلى آلتها الكاتبة وملفاتها واجتماعاتها . . عرف أنها تستطيع أيضاً العمل بيديها ، فطوال يوم السبت ، عندما كانت ابنة رئيس الوردية فى الحديقة ، عبر عن ذلك قائلاً : « مدام تقوم بعمل كبير اليوم » .

الآن ، قرر هو ما يريد أن يعرفه وما لا يريد . . الآن هو الحاضر، وسيعيد ترتيب أوراق الماضى حتى يتلاءم مع هذا الحاضر .

– على أية حال . . . لا أريد من النسوة الأخريات أن يأتين بالطعام لعائلتى . . يجب أن أقوم بذلك بنفسى .

لكن النسوة من أقارب « يوليو » وعائلته ، يعلمن ما فى قولها هذا من مغالطة ، فما تلقاه هى وعائلتها من غذاء وعون وملجأ ليس إلا منهم . نظرت إلى خادمها . . . أدركت أنها وعائلتها لا يختلفون كثيراً عن الأشياء والكائنات التى تدخل فى نطاق حيازتهم . . كالماشية والخنازير .

– النسوة لهن أعمالهن التى يقمن بها . . فهذا مكانهن . . . نحن نعيش دائماً هنا ، وهن يقمن بعمل كل شىء . . . كل شىء كما يجب أن يكون ، ولا حاجة لك أن تعملى لديهن فى « مكانهن » .

عندما تعجز عن فهمه ويلتبس عليها الأمر ، كانت تنتظر لتفهم ما يريد قوله على وجهه الصحيح من خلال سياق كلماته التالية ، برغم أن ثناء «يوليو » على زوجها لم يكن ليخدش شعورها ، أو حتى ليعلى من شأنه فى نظرها ، غير أن « بام » لم يكن لديه المهارة التى لها فى تفهم عباراته وتركيباته اللغوية ، بل كان فى الغالب يثير سخط « يوليو » بإجاباته السريعة التى لا تلقى بالاً لإنجليزية رجل أسود لا تمكنه من أن يعبر عن نفسه جيداً .

بحثت « مورين » فى الأرض المعشبة عن أعشاب طبية لأطفالها يقاومون

بها نقص الفيتامين والإصابة بالإمساك . . . لم تنتظر حتى تحصل على ما تزيد . . . لكن مع تغير مفاجىء فى درجة الصوت ، تحدثت كأنها قد اكتشفت شيئاً :

– أحب أن أكون من النسوة الأخريات فى بعض الأحيان . . . سنتدبر أمرنا فى أن نتحدث .

– على شفتيها الابتسامة اللطيفة التى كانت لها فى موقعها القديم .

– أمر غير طيب . . لكن ، لماذا ؟

– لماذا ؟ . . لكن ، لماذا ؟

– غير طيب !

الكلمات تنتقل جيئة وذهاباً من حوله فى مرواغة .

– لماذا ؟ . . . أتعتقد أن أحداً ربما يرانى ؟ . . . لكن أهل القرية يعلمون بوجودنا هنا . لماذا ؟ . . . الأخطر من ذلك عندما خرج « بام » للصيد ، وعندما قدت أنت العربة . هل تخاف ؟ . . . كانت فى دهشة من نفسها ومن صورتها هذه التى كشفت له للمرة الثانية برغم معرفته الطويلة بها عن جرأة لا تخلو من تحامل ، وشىء من وقاحة .

– أتخاف أن أخبرها بشىء ؟

أصابه دوار . . . توقف لحظة متردداً عن الخوض فى أرض ستلحق الخسائر فيها بطرفى الصراع .

– ما الذى يمكن أن تقوليه ؟

عيناه تومضان بالغضب :

- أعمل لديك منذ خمسة عشر عاماً . . . أقوم على راحتك . . أحقق رغباتك .

صوت أزيز حشرة بينهما . . . قبضة يده اليمنى أمام صدره . . . أنشب الخوف أظافره فى موضع القلب منها .

أبداً ، لم يسبق أن تعرضت لمثل هذه اللحظة . رئيس الوردية لم يكن ليعترض أية رغبة لابنته راقصة الباليه الصغيرة . زوجها ما كان بإمكانه مهما يحدث هناك أن يشكل تهديداً لها . . . وهنا ، ماذا عنه هنا ؟ مهندس معمارى يستلقى فوق سرير فى كوخ من الطين . . . رجل أخذت منه عربته . . . انتابها شعور بالغثيان . . . أى حق من حقوق الزوجة يجعلها تشاركه فى الكوخ الطينى ذاته . . . أمن أجل تواجدهما معاً فى مثل هذه الظروف كان عقد الزواج الذى ربط بينهما ؟

لم يسبق لها أن جربت ذلك الشعور بالخوف من رجل . . . الآن ، حضر الخوف وفرض نفسه على كل شىء : البراغيث وأوجاع الطمث . . جاء الخوف من هذا الشخص . . . منه جاء الخوف وانتشر وتمدد داخل نفسها . كيف لها أن تعلم - حتى بعد قدومها إلى هنا - أن تقديرها الذى أظهرته أمامه كرجل له كرامة ، فى حين أنه الخادم . . . كيف لها أن تعلم أن ذلك سيكون سبباً فى شعورها بالإذلال ؟ .

خمسة عشر عاماً . . . خادمك . . . أحقق رغباتك .

سارت بضع خطوات ، وجلست فوق بقايا حطام أحد الأكواخ الطينية ، مرسلة نظراتها المحدقة بعيداً عنه وعنها . . إلى منطقة الأشجار الخضراء

والرمادية إلى كتل من السحب وطائرة تحلق بين قارتين ، حيث اللازمن واللانهاية .

مع الأزيز المستمر لحشرة ، يصل إلى سمعها صوت صلصلة ماسورة العادم وأدوات إصلاح العربة . لم تمكنها أظافر يدها المكسورة من ترك أى أثر على الأرض الطينية ، فقط أصبع إبهام يدها اليسرى احتفظ بظفره الصلب المستدير . رفعت يدها الأخرى التى كانت تستند بها إلى الأرض لترى آثاراً وعلامات رسمتها فى باطن كفها حبوب وأعواد جافة . هناك ، فى منطقة الشجيرات القريبة من المنجم ، كانت أصابع قدميها ترتطم مرة بعد أخرى بالأرض الداكنة ذاتها ، محطمة بيوتاً صغيرة بنتها جماعات النمل .

نهضت وذهبت إلى حيث ماسورة العادم بين ساقيه المفرودتين على الأرض تحاول إصلاحها . لم تكن على دارية بأعمال الميكانيكا . . . نظرت إلى الكماشة التى يمسك بها ، فوجدت أنها أصغر من أن تؤدى الغرض منها . . . كذلك كانت الطريقة التى يتبعها فى الإصلاح خاطئة من أساسها ، تماماً مثل طريقته فى ترتيب وضع الحقائب مقلوبة على وجهها هناك فى السيارة ، وكانت تمنع « بام » من أن يقول له شيئاً يخدش شعوره ، فهو على أية حال يظهر تفوقاً فى أعمال أخرى .

أمسك بالكماشة والمفك وتابع العمل بإصرار ، ولم ينتبه إلى ما قد يحدثه ضغط ذراعه وأصابع يده من ضرر بسطح الماسورة ، مثلما لم يعرف سبباً للعطل فى آلة حصاد الحشائش التى كان يفكك بعض أجزائها ثم يتركها بالفناء حتى يحضر « بام » .

– لم تكن فى أى وقت من الأوقات قادراً على إصلاح شىء فى العربة . . دع « بام » يقوم بذلك . . اسأله .

لم يجب . . ذلك الرجل الأبيض « بام » الذى أخذ منه العربة «الكارافان»، لم يكن هو الذى عرفه هناك ، ذلك السيد الذى كان يركب أجزاء آلة الحصاد عند ما يحضر إلى المنزل .

- ليلة أمس ، حضر أحدهم .

كان صوته كفرقعة السياط فى رأسها . . . حبست أنفاسها . . . ذلك النبض المرتفع الصوت عند ثديها الأيسر تحت قميصها . . . الخوف .

- البوليس ؟ . . من ؟

- واحد من مركز الشرطة هناك .

نفد صبرها .

- أمر طيب يا « يوليو » . . . هو يعرفك . . . أقصد يعرف بوجودنا .

- هو يعرف من أكون . . أرسل أحدهم ليسأل عمن معى فى منزلى ، ويخبرنى بضرورة ذهابى إلى المركز . . . يجب أن أجلى له الأمر . . . دائماً عند قدوم أناس إلى مكان ما ، عليهم أن يذهبوا إلى ضابط المركز ويسألونه . .

عَمَّ يسألونه ؟

- يسألونه الإقامة فى قريته .

- قلت أنت إن هذا مكانك . . . كل شخص يعرف أنه مكانك . . . تستطيع أن تفعل ما يحلو لك . . . لم تكف عن قول ذلك منذ وصلنا . . . مائة مرة .

- نعم ، قلت ذلك . . . مكانى هنا . . . لكن كل الناس هنا ، كل

القرويين ، يتبعون ضابط المركز . . . إذا هو أرسل أحدهم ليسألنى عن هذا أو ذاك فَعَلَىّ أن أجيب . . . إذا هو طلب أن أحضر إليه ، فَعَلَىّ أن أذهب . . هذا قانوننا .

– لماذا لم تقل لنا من قبل إن علينا الذهاب مسرورين لنرى ضابط المركز؟

نظر نحوها . . . إلى قدمها المتسخة ، وجهها النحيل ، وشعرها المشدود إلى الخلف برباط من المطاط ، وثوبها الذى حال لونه عند الفخذ والأطراف .

– الآن ، أقول لك .

– متى ؟

أومأ . . بحسب توقيته هو . .

– غداً .

– « بام » ، يمكنه الذهاب معك .

لا يزال يقوم بعمل إصلاحات فى العربة .

– أنت والسيد والأطفال . . جميعاً تذهبون .

ليس الغضب ، وإنما هو الصراع . . . ذلك الشىء الذى تستشعره داخل نفسها . . . الدخول فى علاقة خانعة معه ، شىء لم يحدث لها مع «بام» صاحت قائلة مثلما قالت له عندما كان يفكك أجزاء آلة الحصاد . . .

– اتركها . . سيأتى ويصلحها .

غذت السير ناحية الأكواخ . . . وفجأة ، وهى فى حالة أقرب الى

الإنهيار والسقوط ، استدارت إلى الخلف كأن أحداً طلب منها العودة . . . ذهبت إلى المكان الذى كانت تقف فيه من قبل . . . كان أحدهما على مقربة من الآخر . . . يدها تحجب الشمس عن عينيها . . . رأسه لا يظهر من تحت جسم العربة . . . كل منهما لا يرى وجه الآخر . . . قالت بصوت لا يسمعه غيره :

- لا شىء يدعوك لأن تخاف . . . لن يسرقها منك .

الفصل السادس



1

نهض « بام » من فوق السرير ، مثلما ينهض رجل كان مستلقياً على أريكة وغلبه النوم ، فى وقت يفترض فيه ممارسته العمل .

- أمر هين ، فيما أرى . . . أن نلبى طلب ضابط المركز ونذهب إليه .

من المؤكد أنه كان يستشعر سخافة الأمر . خطوط وعلامات على جانب وجهه من أثر الجوال الفارغ الذى كان يستعمله كوسادة . بعد طول صمت قال وقد تحشرج صوته ببلغم فى سقف الحلق :

- من النادر أن يقوم أحد بزيارة إلى هنا .

- على أية حال ، علينا أن نذهب . . . لا أدرى لماذا لم يطلعنا على ذلك من قبل ؟ .

- ألم تسأليه ؟

- لم يكن على استعداد لقول شىء . فمزاجه مضطرب .

- ماذا حدث ؟

تناولت جرعات ماء من فوهة الزجاجة التى أمسكت بها عند دخولها . . . ابتل فمها بالماء وظهر على وجهها ظمأ قد ارتوى وهدأت شدته .

- كان قلقاً من أن أتحدث عن امرأة المدينة .

– ماذا ؟

كان يخشى من الصداقة التى نشأت بينى وبين زوجته « مارتا » ومن الكلمات القليلة التى نتبادلها فى الحقول . . . وربما زاد قلقه لمعرفته أنها تستطيع التحدث قليلاً بالإفريكانية .

– نعم . . « إيلين » . . . لكن ما الذى جعله يفكر أنك قد تتحدثين عن ذلك ؟

نظرت إلى ذلك الرجل نصف النائم الذى لا يعرف شيئاً ، وتحدثت بحدة ربما لم يكن هو المقصود بها :

– هراء . . . فما يحدث فى ضواحى مدننا من خيانات زوجية لا يعنى أحداً هنا ، كذلك زوجته لا تعرف عنه أى شىء هناك .

سحب « بام » قطعة ورق من إحدى لفات ورق التواليت التى تحتفظ بها « مورين » ، وخرج إلى منطقة كثيفة الأشجار تاركاً وراءه رائحة عرق أفرزه أثناء نومه . هناك لم تعرف « مورين » شيئاً عن رائحة عرقه هذا ، لا مجال هنا لتفكير فى دش حمام أو دورة مياه ، أو أى شىء من ذلك ، فقد ذهبت جميعها بعيداً ، ولم تعد تستطيع التعرف على نفسها وعلى رائحة جسدها .

الحوائط الطينية للكوخ بغير نافذة تفتحها إلى آخرها لكى تخرج الرائحة الكريهة لهذا الرجل . . . إنه الجسد الذى كثيراً ما كانت تعانقه وتلاطفه فى السرير ، هو أصل تلك الرائحة . غادرت فتحة الكوخ وأشعلت نار الموقد فى الخارج فانتشرت مع دخان احتراق الخشب رائحة طيبة لتطرد كل أثر لرائحة أخرى . لقد كانت « مارتا » أكثر فطنة حتى تحتفظ بجذوة نار صغيرة مشتعلة داخل الكوخ ، على العكس من هؤلاء الذين يفكرون وكأنهم

يعيشون فى منزل بحمام ودورة مياه ، ويجدون مثل هذه العادة غير صحية وضارة .

فى الصباح وهم مستعدون للذهاب إلى ضابط المركز ، مرتدين ثياباً نظيفة بدون كى ، بـدا مظهرهم أقل هنداماً مـن « يوليو » و « دانيال » . . فـ « مورين » لم تحاول استخدام المكواة القديمة التى تسخن فوق نار الموقد ، والتى تستعملها النسوة فى كى سراويل وقمصان بلى نسيجها . كانت تثرثر مع الأطفال ، تمازحهم فى حنو وتبتسم لتعليقاتهم مشاركة معها « بام » كعادتها عندما كانوا يخرجون فى سيارتهم فى نزهة أو إلى السينما . لأكثر من ثلاثة أسابيع مضت ، أحاطت بهم مساحات شاسعة من العشب والأشجار والأكواخ المتناثرة . . . لذا فإن أية حركة من جانبهم لاجتياز هذا النطاق ، تعد حدثاً غير عادى .

شعر « بام » بحاجته إلى أن يحلق ذقنه ، فحتى السجين عندما يحين موعد النطق بالحكم ، يحاول أن يبدو فى مظهر حسن وهو فى طريقه إلى المحكمة ، عبر شوارع المدينة التى ينظر إليها من خلال قضبان حديدية فى نافذة العربة . . مثل هذا السجين ، شاهد « بام » أصابعه الممسكة بقضبان نافذة عربة السجن حين كان يحاذيها بسيارته هناك .

ليس شعوراً بالرهبة ، ذلك الشىء الذى يستشعره فى صدره ، وإنما هو بعض يقين . هذا ضابط الشرطة يستدعيهم إليه . . . الأطفال الثلاثة يهرولون داخل وخارج الكوخ ، كل يعلن عن سبب الشكوى ويبحث عن شىء يثيره ويبهجه . . . وزوجته ممسكة بقطعة حجر تضرب بها فوق رأس مسمار فى « صندل » ستلبسه فى قدميها . . . وهو فى ضوء الصباح خارج الكوخ يحلق ذقنه .

هل يأمرهم ضابط الشرطة بالذهاب ؟ . . . أيدلهم على مكان يذهبون إليه؟ . . . أهو الخط المنحنى فى باطن كف يده ، دلالة على السفر والارتحال؟ . . لكن ذلك ليس من عادات هؤلاء . . . هى عادة تتصل بمجتمع آخر أكثر تحضراً . . . فعندما يبيع رجل أبيض مزرعته أو يموت ، يأتى المالك الجديد ليقول ببساطة للعمال السود الذين يعيشون ويعملون فى الأرض منذ ولادتهم : اذهبوا .

لم يقل لها شيئاً عن حقيقة الأمر بالشكل الذى يراه ، لا لأنه لا يرغب فى تحذيرها و إحاطتها علماً بما سيجد من أمور ، وإنما لأنه لم يكن يعرف فى هذه الأيام إلى من يلجأ بالحديث . . . « مورين » زوجته ابنة رئيس وردية يتحدث باعتزاز عن المدينة التى نشأ فيها . . . فتاة بثياب الرقص تعطى دروساً فى الرقص الحديث للسود فى فصول مسائية ، تحت أنظار صديقها المهندس المعمارى . . . تدعى معه إلى عشاء فى منزل أحد عملائه . . . هذه المرأة التى كانت تضحك فى صحبة الأصدقاء ، وأصبحت تجتذبه إليها بقوة، وهى التـى ألفهـا مثلما ألف كوباً زجاجياً فى أحد أرفف دولاب المطبخ .

للزواج وجوه أخرى للخداع . . . واحد للتحايل على ضريبة الدخل ، وآخر لاجتذاب عملاء وزبائن له وحصص إضافية لها . . . وثالث هو ذلك الارتباط الوثيق ، فضلاً عن أوقات تمر لا ينظر أحدهما فى وجه الآخر ، ولا يتبادلان كلمة حوار . . . والارتباط فى وجه تهديدات الغيرة والاختلاف فى الآراء والمعتقدات السياسية ، والتحامل العرقى العنصرى ، ومذاق النبيذ الذى يغرى بالاستحواذ والتملك .

ليست « مورين » زوجته ذلك الكائن الموجود فى الكوخ الطينى الراغب عن الكلام ، فلا سبيل له لأن يتعرف إلى ما يدور فى نفسها من مشاعر وأحاسيس . . . ولا سبيل لإدراك حقيقة الأشياء من حولهما . . . فقط ، هى لحظات لأن يكتشف كل منهما الآخر .

فى هذا الصباح ، اختارت أن تظهر أمام الأطفال باعتبار كونها « أمهم » و « زوجته » ولكنها لم تكن الشخص الذى يمكنه أن تخبره أن ضابط الشرطة ربما يسألهم الذهاب . لم يكن لديه أية فكرة عن الكيفية التى تتعامل بها مع حقيقة الأمر كما يفهمها هو ، فلم يسبق أن مرا بمثل ما يمران به الآن ، هو أيضاً ، كيف يكون تعامله مع هذا الوضع ؟ كيف له أن يقبل وأن يفسر لأى شخص - بعد كل هذه الأيام - أن كرامته كرب أسرة وضعت تحت الاختبار أمام زوجته « مورين » وأطفاله « فيكتور » و « جينا » و « رويس » الذين يعيشون على أطباق الثريد ؟ . . . كيف له أن يفسر لهم التحول الذى طرأ على ما كان يهدف إليه ؟ . . والتحول من موقع البحث عن كيفية للخروج من هذا المكان ، إلى موقع البحث عن وسيلة للبقاء فيه .

لم يكن اصطحاب « دانيال » معهم أمراً ضرورياً ، لكنه واحد من الفريق الآخر ، كما أن أحداً منهما لم ينبس بكلمة حول ضرورة ذهابه معهم . وكان لابد من إعادة النظر كثيراً فى المكان الذى يشغله الأطفال الثلاثة فى العربة قبل محاولة إرضائهم . . . قام « يوليو » بذلك كما تعود ترتيب وضع الحقائب فى العربة هناك ، وقَبِلَ الأطفال عن طواعية ما اقترحة عليهم ، برغم عدم تلبيته هو لمقترحات الأب والأم . . اتخذ « دانيال » مكانه فى الخلف معهم ، وفى الحال بدأ فى مشاركتهم كزميل فى اللعب والمنافسة ، و « جينا » ممسكة

بيد « نيكو » الذى لا يكف عن الكلام بلغته وحديثه الخاص معهم ، طلبت مصاحبته لها ، قائلة : إنه صديقى .

فضلت « مورين » ألا تكون طرفاً فى مشاحنات الأطفال ، وجلست فى مكان الوسط من الأريكة الأمامية للعربة ، كرسى عجلة القيادة إلى يسارها ، وآخر إلى يمينها . باب العربة المجاور لعجلة القيادة كان مفتوحاً . . . اتجه «بام » إلى الباب الآخر ، لكن « يوليو » كان هناك . . فتحه وجلس . توقف « بام » للحظة متردداً ، ثم رجع ، تحت أنظار « مورين » و « يوليو » ليتخذ مكانه خلف عجلة القيادة . قطع من البلاستيك زينت بها العربة لا توجد فى متجر هندى ، ومن المرجح أنها من أحد البوتيكات الملحقة بمحطة بنزين أو بجراج . بنصف ابتسامة ألقى « يوليو » نظرة عليها ، لكنها بحدة حدقت فى جانب وجهه قائلة : ماذا تريد ؟

ربما « يوليو » - مثل « مورين » - قد لجأ إلى نهب المحال التجارية أثناء الاضطرابات ؟!

فى صوت غير واضح وبيديه وذراعيه ، كان يشير « يوليو » إلى طريق عليه آثار ماشية كى تتبعه العربة . أشجار تضرب بأغصانها جسم العربة ونوافذها . . . أبقار بقرون طويلة مشوهة اجتذبها مشهد العربة الصفراء . . . أنزل « يوليو » زجاج النافذة وأخرج ذراعيه ليضرب بكف يده على جسم العربة محذراً . مرت العربة بالأكواخ وبالناس الذين يعملون فى قطع الخشب الشيء ذاته الذى كانوا يعملونه عندما جاءت العربة بركابها من المدينة . . الظهور المنحنية تغسل الثياب أو تفرز حبات الذرة من القش وكرات الطين . . . الأطفال الرضع فوق ظهور الأمهات اللاتـى يعملن فى

الحقل ، نوع من الحياة يجلب القلق لمن لم يتعود مثل هذا الاقتراب من دورة حياة كانت دوماً خارج نطاق خبرته ومعرفته .

الناس فى مواقعهم أمام الأكواخ وفى الحقول رفعوا أبصارهم ينظرون إلى العربة وما تحمله من ركاب كانوا قد سمعوا عنهم . . مرة أو مرتين صاح «يوليو » محيياً .

– نبتعد عن الطرق الرئيسية .

– نعم .

– ضحك « يوليو »

أبطأت العربة من سيرها عند مرورها بمرعى للماشية وبأكواخ تفصل بين بعضها وبعضها الآخر أكوام نفايات . استدارت العربة يميناً ثم يساراً كطلب « يوليو » لتفادى الحُفَر التى كونتها مياه الأمطار فى الطريق . .

– أبْطِىء . . أبطىء . .

هكذا تحدث « يوليو » فى محاولة لإدخال الطمأنينة عليهم .

– سنقف عند ذلك المكان تحت الشجرة . . . وننتظر قليلاً عند ذلك البناء هناك .

2 قرأ فى صمتها وهما جالسان فى العربة أن ما كانت تتوقعه منه فى الماضى لم يعد فى استطاعته الآن ، فهو لم يسأل الرجل تفسيراً لتصرفاته . قفز « يوليو» من مقعده بالعربة إلى الأرض ، وأغلق بابها فى وجه من يفكر فى أن يحذو حذوه ، لم يكن فى حاجة إلى من يدله على الطريق . . . ربما هذا المنزل الذى يقصده هو منزل ضابط الشرطة .

منشأة مبنية بالطوب مستطيلة الشكل ، أشبه بكنيسة أو مدرسة . . . بناء من ذلك النوع الذى يستخدم فى المنافع العامة ، والذى أعد عنه بحثاً بعنوان « احتياجات العمارة الريفية الإفريقية » . . . لم يعد فى إمكان المجتمعات السكنية الآن أن تشيد بنايات ذات أبراج ومداخل مسقوفة مثل التى كانت للمبشرين الأوائل ، فالبناء مسقوف ، وله أربع نوافذ تحطم زجاجها ووضع بدلا منه قطع من الورق المقوى . . . وهناك زاوية حديدية معلقة فى شجرة كبديل لجرس كنيسة أو مدرسة يقرع عندما يحين وقت الصلاة أو الدرس ، لكن بدلا من الصليب الذى لا وجود له فى أى مكان ، كانت هناك أكوام من النفايات وقوائم خشبية لمرمى كرة قدم ، وأرض معشبة منبسطة تستخدم فى قطع الأخشاب . . . وثلاثة جياد أُحكم رباطها ، ورجل يستظل بشجرة مستنداً بظهره إليها . إيقاعات موسيقا « البوب »

تنبعث من الكرسى الخلفى للعربة ، لا بد أن « دانيال » قد أحضر معه جهاز الراديو .

غادر « بام » مقعد السائق واتجه إلى الباب الخلفى .

- ما هذا المكان ؟

« رويس » و « فيكتور » يتراشقان ببعض البذور الجافة و « جينا » تستند إلى جسد « دانيال » ويدها الصغيرة تمسك بمفتاح تحويل الموجات تحرك جسدها مبتسمة مع إيقاع الموسيقا وصوت « الساكسفون » الصادر من محطة الإذاعة .

- ما هذا المكان ؟

ضحك « دانيال » باحثاً عن كلمات يجيبه بها :

- هو المكان . . . الذى يأتى الناس إليه .

عاد إلى مكانه بالعربة يختبر بأصابعه غطاء البلاستيك الذى يزين عجلة القيادة .

ربما كان هذا مبنى المحكمة . .

- لماذا لا نذهب إليه ؟

- كيف لى أن أعرف ؟

بعد فترة صمت تحدث :

- لندعه يعالج الأمر . . . فهو دائماً يعرف كيف يعالج مثل هذه الأمور بدهاء .

مشاعر عدائية تجاه بعضهما وبعض بدأت تتكشف لهما . . . كانا يتندران

ساخرين من « يوليو » عندما يدخل في مراهنات فى فناء المنزل ويخرج منها فائزاً بقليل من المال ، وكان هو يستشعر بعض الضيق ويفرك أصبع السبابة بالإبهام ويعقد ما بين حاجبيه قائلا : « الجميع يحبون المال » . . لا شيء غير المال كان يحرص عليه « يوليو » الخادم الفقير المعدم فى المدينة الكبيرة التى لا يملك شيئاً فيها غير رطل من اللحم مثله مثل « شيلوك » .

سكتت الموسيقا ليبدأ أحد المذيعين فى قراءة النشرة الإخبارية باللغة البرتغالية بصوت عالٍ سريع الإيقاع ، مرح ، يشبه صوت مقدمُ برنامج للتسجيلات الغنائية . . . من بين ألفاظ اللغة البرتغالية تكرر على لسان قارىء النشرة ذكر كلمات باللغة الإنجليزية : « قوات تحرير أزانيا » وأسماء أماكن كـ « بريتوريا » و « جوهانسبرج » ، واستطاع « بام » تمييز فقرات من النشرة تتعلق بالسفارة الأمريكية . . . من المؤكد أن محطة الإذاعة هذه تبث إرسالها من « موزمبيق » .

أسند « بام » رأسه إلى النافذة حتى يستطيع الاستماع بشكل أفضل ، قفز من العربة خارجاً مرة ثانية ، أخذ الراديو من « جينا » ، لكن الفترة الإخبارية كانت قد انتهت ، وفاته الجزء الأخير منها للضجة التى يحدثها الأطفال . .

من مكانه تحت الشجرة نهض الرجل ، خطا خطوات قليلة محدقاً فى العربة وركابها . . . عارى القدم ، بوجه مكتنز متغضن ، وبعينين يقلب بهما النظر على نحو انفعالى ، لا تكاد نظراته تستقر على اتجاه حتى تتحول إلى اتجاه آخر . . . كان الرجل يتحدث إلى « دانيال » عن الرجل الأبيض فى وقفته ممسكاً بجهاز الراديو فى محاولة لالتقاط إرسال محطة أخرى . . . الرجل

و «دانيال » كانا يتحدثان عنه كما يتحدث الناس عن رجل مستلقٍ على ظهره فى سرير بمستشفى .

لاح « يوليو » يتقدمه رجل يرتدى زيه الرسمى وينظر فى اتجاه العربة ومن بداخلها . . . توقف لحظة سبقة فيها « يوليو » ثم أسرع الخُطَا كأنه كان يَنتظر من « يوليو » أن يجد له طريقاً وسط الزحام .

لم يكن « بام » قد عاد إلى مجلسه أمام عجلة القيادة ، كذلك كان من غير اللائق ألا يكون واقفاً عند استقبال الرجل الأسود فى زيه الرسمى . . . تبادلا التحية فى همهمات سريعة خفيفة الصوت ، كل باللغة التى لا يفهمها الآخر .

– بامفورد سميلز . . . زوجتى . . . أطفالنا .

– من أين أتيت ؟

لابد أنه عرف من « يوليو » من أين أتوا ، مثله مثل الناس فى الأكواخ والحقول الذين عرفوا بحكايتهم .

– من « جوهانسبرج » مع « يوليو » .

– نعم . . نعم .

مرة أخرى نظر الرجل الأسود بحجمة الضخم تجاه ركاب العربة ، رد تحية المرأة ودانيال أيضاً الذى حياه ووقف صاغراً إلى جوار « يوليو » .

– لأى غرض أتيت إلى هنا ؟

زحفت ابتسامة على شفتيها كرد فعل تلقائى لا تقصد به مداهنة أو تملقاً . . . لو تعلم ما الذى يبعث على سروره ؟ . . . تحسست بيدها شعرها

الأشقر القصير وبشرتها التى لفحتها أشعة الشمس الحمراء وتغير لونها وفقدت جمال ملمسها .

- حسنا . . أنت تعرف الاضطرابات الشديدة هناك التى تشبه الحرب . . . كان من الممكن أن نكون قد لقينا حتفنا فيها ، والمنازل التى نقطنها قد أُحرقت ، وبعضها فجرته القنابل ، وكان على الناس أن يرحلوا . . . ولما كان من الممكن أنْ يصاب أطفالنا بأذّى فقد جاء « يوليو » بنا إلى هنا .

قاطعه « يوليو » :

- لقد أخبرنى أن ضابط الشرطة فى منزله ، وعلينا أن نذهب إليه الآن . تعرف كل من « بام » و « مورين » على صفة الرجل الأسود الذى لم يتعد كونه أحد البوابين بالمدينة ، وبالنسبة إلى « مورين » لا يزيد على أحد الحراس الذين يقومون بحراسة المجمع السكنى الذى يقطنه مجموعة العمال الذين يعملون لدى والدها رئيس الوردية . . . ربما هى لذلك لم تنزل من العربة لتقف إلى جوار زوجها أمامه . . . على أية حال ، فقد صافح « بام » الرجل مرة ثانية قبل أن يواصل قيادته للعربة .

- من ذلك الرجل ؟ . . . أقصد ماذا يعمل ؟

ما يرضى زهو « يوليو » هو أن يبدو فى موقف الذى يمسك بيده مقاليد الأمور ؛ لذا فهو لا يأخذ أسئلة الرجل الأبيض مأخذ الجد تماماً مثلما لم يكن من الضرورى له كأسود أن يفهم أو يلم بقوانين البيض وطرائق حياتهم هناك فى المدينة .

- واحد ممن يعملون تحت إمرة ضابط الشرطة .

- أكثر من واحد يعمل تحت إمرته ؟

ضحك « يوليو » :

– كثيرون . . . فالقرى كثيرة .

– واحد لكل قرية ؟

– هذا الرجل يعمل لدى الضابط . . . إنه المساعد الخاص به .
استعادت مكانتها القديمة باعتبارها تقوم على تفسير ما يقوله « يوليو » .

قاد العربة الصفراء فى المدى الفسيح . . . من حولهم الأكواخ الطينية والبشر والحيوانات وأعلام مهترئة تمسك بها أفراد طائفة دينية . . . رجال ونساء يفترشون الأرض ويقرءون المستقبل بواسطة قطع من عظام الحيوانات ينثرونها أمامهم . . . قوائم وأسيجة وأسقف مجدولة من أغصان الشجر تعرض تحتها أشياء وبضائع للبيع .

أَسَر إليها :

– كان علينا أن نحضر معنا شيئاً . . . زجاجة ويسكى !

شىء يتوصل به « بام » إلى تدعيم علاقته بعميل من عملائه ، أو يقدمه هدية إلى صاحب مزرعة فى مقابل استضافته له خلال إجازة صيد نهاية الأسبوع . . . لكن إذا كان من غير المتوقع أن تغير هذه الهدية من موقف الرجل الأسود الذى لديه سلطة اتخاذ قراره لهم بالرحيل فإن « بام » لو واتته تلك الفكرة من قبل لكان قد طلب من « يوليو » أن يشترى له واحدة .

– شىء ما عن السفارة الأمريكية .

– لكن بالبرتغالية . . . ربما كان الأمر يتعلق بمكان آخر فى العالم .

– لا . . . فالأمر يتعلق « بجوهانسبرج » و « بريتوريا » اللتين يذكرهما المذيع بين عبارات اللغة التى يتحدث بها .

هَدَّأَ « بام » من سرعة العربة إلى حيث أشار « يوليو » وأوقفها إلى جانب كوخ له مدخل مسقوف بألواح صفيح ترتكز على دعامات من أغصان الشجر . . . وبالقرب من الكوخ فتاة فى الثانية عشرة تمسك طفلاً صغيراً من ذراعيه وتؤرجحه يمنة ويسرة .

نزلوا جميعاً من العربة ، وتحت ألواح الصفيح عند مدخل الكوخ وقفوا يحتمون من أشعة الشمس . . . بدا لهما أن كل شىء فى هذه القرى يمكن أن يمحوه البلدوزر ، أو يحوله عود ثقاب مشتعل ينتهى إلى رماد .

من المدخل المظلم جاء رجل تحدث إلى « يوليو » وعاد ثانية إلى الداخل . . . على مقربة كانت امرأة تفرغ على الأرض ماءً غير نظيف من صفيحة صدئة ، وبعد أن انتهت من تفريغ حمولتها اتجهت إلى « دانيال » الذى أشار لها إلى « يوليو » ، راحت إليه ، سألته شيئاً وأجابها باهتمام .

رجل آخر لاح عند المدخل ، وظهر ثانية الرجل الأول . . تبددت الأصوات فى الفضاء الممتد وران الصمت . . . لا شىء يمكنهم عمله سوى الانتظار . . . حاول الأطفال ملاطفة القطط والاقتراب منها ، غير أن أيديهم روعتها فاختبأت خلف أسطوانات تبريد محرك عربة قديم هاجمه الصدأ .

فجأة نزل « بام » من مجلسه بالعربة واقفاً بقدميه على الأرض عند ظهور رجل وسط مجموعة رجال انحنى له « يوليو » و « دانيال » . . . ضابط شرطة أسود نحيل القوام يرتدى الملابس البالية ذاتها التى يرتديها قرويون سود .

صافح الضابط كُلا من « بام » وزوجته ، وتجاهل الأطفال الذين

يضحكون من غرابة ما يجرى حولهم ، مما جعل أمهم تشير إليهم من طرف خفى بألا ينبسوا بكلمة .

ثلاثة أو أربعة مقاعد من البلاستيك تم إحضارها من مكان خلف الكوخ الذى يبدو كمكان لاستقبال الغرباء ، وليس منزلاً يقطنه الضابط .. وقف كل من « يوليو » و « دانيال » وجلس البعض على المقاعد ، والبعض الآخر جلس القرفصاء . . . بعض النسوة اللاتى يحملن فوق رءوسهن صفائح ممتلئة بالماء توقفن على بُعد خطوات يستمعن إلى ما يقوله الضابط ، لكنهن لم يجرؤن على الاقتراب . . . كان بصوته المتعجل الحاد أكثر حيوية وحركة من الرجال المحيطين به . . . لم يكن يعرف لغة الرجل الأبيض ، فلا سبب يحتم عليه معرفة ذلك ، فهو لن يعمل كخادم عند رجل أبيض فى المدينة أو كعامل فى منجم . . . وكان يضع فى زاوية فمه عودَ ثقاب يضغط عليه بشفتيه الغليظتين ، سخر من تعليقات رجاله ومن كلام « يوليو » سيواجهون كل ما مر بهم من أسئلة مرة ثانية من خلال « يوليو» كمترجم . . من أين قدموا ؟ . . لماذا حضروا إلى هنا ؟

– يقول الضابط إنه لم يسبق له أن صادف رجلاً أبيض وعائلته يلجئون إلى كوخ خادمهم .

على وجه « يوليو » الملامح ذاتها التى لمترجم يسوق الكلمات بدون أن تعنى له الشىء الكثير . . . أخفى « دانيال » وجهه الغارق فى الضحك ، و« مورين » ضحكت أيضاً ، لكنها رأت أن من الصواب أن تتجه بضحكاتها مباشرة إلى الضابط الذى أخذها مأخذ الاستحسان لما يقول ، فافترت شفتاه المتغضنتان بلونهما الأرجوانى الضارب إلى السمرة عن ابتسامة ، وعبرت عيناه الصفراوان عن امتنانه .

بعد ذلك جاء دور الحديث فيما يتعلق بهم بشكل شخصى . . . حديث يستلزم الخوض فيه قدراً من الجدية ، فلا اختلاف هنا عن أى مكان آخر فيما يتعلق بعلاقات القوة وطقوسها . . . وسواء كانت مقابلة مع قداسة البابا ، أو تحقيقاً أمام ضابط فى قسم الشرطة ، أو لقاء مع عميد كلية العمارة فى سنوات الدرس . . . فالأمر لا يختلف كثيراً عن اثنين تجمعهما حلبة نقاش .

يريد الضابط أن يعرف ما الذى كان يجرى على وجه الدقة هناك فى «جوهانبسرج » . . . أن يسمع من شاهد عيان أبيض ما الذى انتهت إليه الأوضاع هناك بعد ثلاثمائة وخمسين عاماً من الصراع بين البيض والسود .

– من يشعل الحرائق ضد حكومة « بريتوريا » ؟ هؤلاء الناس فى «سويتو» . ؟

– فى كل مكان ، وليس فقط فى « سويتو » .

يشرح له :

– القتال فى كل مكان .

– هو يعلم ذلك ويريد أن يسألك : لماذا لا يقبض رجال البوليس على هؤلاء الناس مثلما حدث فى عام 1976 وعام 1980 . . . لماذا لا يطلق البوليس الرصاص عليهم ؟

– انضم السود من رجال الشرطة إلى القوات المتحاربة السوداء ، فهم لا يريدون الإمساك بأناس منهم بعد الآن . . . وهذه كانت البداية .

– وقوات الجيش من البيض ألا يطلقون الرصاص على رجال البوليس هؤلاء ؟

استمع الضابط إلى ترجمة سؤاله محولاً وجهه المغلق المتغضن إلى اتجاه آخر مظهراً عدم استعداده لأن يُغَرَّر به من قِبَلِ أى شخص .

- إنها الحرب . . . فالسود أيضاً يستحوذون على البنادق والقنابل وغيرهما من الأسلحة ووسائل القتل والدمار مثل التى فى حوزة قوات الجيش من البيض . . لقد عاد السود من « بتسوانا » « وزيمبابوى » و«زامبيا » و«ناميبيا» و « موزمبيق » ومعهم السلاح .

كان الضابط أحياناً يتحدث مع رجاله بلغتهم حول بعض النقاط التى تحتاج إلى تفسير ، وعند ذلك يجد « بام » نفسه خارج موضوع النقاش . . . و« مورين » عندئذ لا تستطيع كبح جماح فضولها مركزة انتباهها إلى « يوليو» .

- ماذا يقول :

- يقول إنه لا يصدق أن البيض لا يطلقون الرصاص على هؤلاء الرجال ، وأن الحكومة لا تصدر الأوامر بقتلهم ، فمع البيض دائماً البنادق والدبابات والطائرات من زمن طويل يرجع إلى الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918م) . . . ويقول إن البيض لا يفرون ، لا شىء يجعلهم يلوذون بالفرار .

نحن وهم . . مَنْ نحن الآن ومن هم ؟

- البيض يطلقون رصاص بنادقهم جيداً ، لكنهم الآن ليسوا وحدهم الذين فى حوزتهم البنادق ، وحتى الطائرات ، فالسود معهم كوبيون يأتون بطائراتهم من « موزمبيق » و « ناميبيا » .

نحن وهم . . . ما الذى يسأل عنه ؟ . . الانفجارات فى مقار اتحادات العمال ، والحرائق التى تلتهم المنازل ؟

- ويريدون قتلكم .

تحدث الضابط بالإنجليزية ، وفى صمت راح يرقب بوجهه وقع المفاجأة عليهم .

ضحكت « مورين » مرة ثانية للضابط ، وبدت كأنها المقصودة بمفاجأته تلك التى عقدت لسانها وأجرت الدماء فى بشرتها التى لفحتها الشمس وأفرزت عرقاً من وجهها النحيل . . . ربما فقدت السيطرة على نفسها ولم تستطع التحكم فيما طرأ عليها أمامهم .

إذا كانت مشاهدة الضابط ورجاله لهم تجلب إليهم شعوراً بالارتياح والظفر ، فالرجل الأبيض وعائلته بين أيديهم ، لكن لا شىء يمكن « لبام » أن يتحدث بشأنه معهم . . . حتى « يوليو » لم يعد ينظر النظرة نفسها إلى الوجه الذى تعود أن يناديه بالسيد . . . « ويريدون قتلكم » . . . إذا كان فى ذلك الأمر تسلية للضابط فهو صاحب الامتياز هنا ، والآمر الناهى فى العمال المهاجرين إلى القرى البعيدة التى بلا رجال بحقولها ، والتى تفتقر إلى معدات الزارعة ، وبأطفالها الذين يسعلون فى أسمالهم البالية .

إذا ما صدر الأمر بالطرد فهل للسلطة التى أصدرت ذلك القرار أن تأمر « يوليو » بإعادة العربة إلى أصحابها ؟ . . . وهل لأحد رعايا سلطة أخرى - آخذة فى الانهيار الآن - عاش تحت مظلتها سنوات فى المدينة أن يتعرف على قرار الضابط ؟

اثنان من رجال الضابط غادرا المكان . . . بصق الضابط بصوت عال ، وعندما تكلم ثانية تحدث بلغته وترجم « يوليو » . . ومن بين كلمات لغتهم جاءت على لسانهم الكلمة الأجنبية « كوبا » .

– هو يقول إن الحكومة أخبرته من زمن طويل أن الروس والكوبيين فى نيتهم أخذ بلاده منه .

– مثل هذا القول قالته الحكومة للقيادات المحلية ولضباط الشرطة ، لكن السود الآن هم الذين يشعلون الحرب حتى يسترد كل شخص الأرض التى سلبها منه البيض .

– وأرضك أنت أيضاً .

– أنا لا أمتلك أرضاً .

– ومنزلك ؟

– منزلى . . نعم . . . وحدهم البيض يمكنهم البناء على الأرض فى المدينة . . . ربما يأخذون هذه البنايات وربما لا يأخذونها .

ربما ترتفع البنايات خالية من قاطنيها بعد أن أشعلت فيها النيران . . وربما عادت « إيلين » امرأة المدينة صديقة « يوليو » إلى حجرته بفناء المنزل وفى هدوء تقوم بالعناية به .

تحدث الضابط مرة ثانية بالإنجليزية :

– هؤلاء الناس من « سويتو» يأتون إلى هنا مع الروس ومع الكوبيين القادمين من « موزمبيق » يريدون انتزاع البلاد من أهلها . . . هم ليسوا منا . . . هم الآن موجودون فى المناجم ويقتربون من هنا . . . والحكومة ستزودنى بالسلاح إذا جاءوا إلى هنا ، وسنقتل هؤلاء الناس عندما يأتون إلينا ببنادقهم .

متجهاً بحديثه إلى « بام » و « مورين » :

– أحضر بندقيتك وعلمهم كيف يستعملونها . فالبيض كانوا من قبل يمنعوننا من شراء البنادق ، حتى أنا الضابط ووالدى وجدى ليس فى حوزتنا بندقية . . قاتِلْ معنا هؤلاء الناس من « سويتو » و « الروس » و«الكوبيين » الذين ينوون الهجوم علينا .

– ببندقيتى ؟

نهض « بام » واقفاً على قدميه ، وتحول إلى زوجته الجالسة ويداها فوق فخذيها تنظر إلى قافلة من النمل تزدحم حول بقايا جسم حشرة داستها قدم . . . كانت « مورين » وكأنها تحت تأثير التنويم المغناطيسى .

– بندقيتى ؟

لم يعرف أن ذراعيه مفتوحتان إلى آخرهما إلا بعد أن لاحظ « يوليو » الضابط ورجاله ينظرون إلى ذراعيه ويديه الممدودتين إليهم .

– لن نقتل من هم أهلك وعشيرتك . . لن نقتل السود شعب «مانديلا» !

أتراهم قد نسوا « لاثالى » أو لم يسمعوا عن « بيكو » المعروفين جيداً فى نيويورك واستوكهولم وباريس ولندن وموسكو ؟

– لن نحمل السلاح ونساعد قوات الحكومة من البيض فى قتل السود من أجل هذه القرية وهذه الأحراش الخالية ؟! . . . أليس كذلك ؟ . . . وسيقتلونك . . . لا نسمح للحكومة أن تجعلكم تقتلون بعضكم بعضاً . . لتعلم أن أوطان السود جميعها هى وطنك .

كانت تسمعه يقول ما كان هو وهى يقولانه دائماً .

انتقل عود الثقاب من الزاوية اليمنى لفم الضابط إلى الناحية اليسرى . . ثم بصق على الأرض :

- كم أصبت ببندقيتك ؟

- أصبت خنزيرين بريين وأرديتهما قتيلين . . بندقيتى لقتل الطيور والحيوانات .

- أليس معك شىء آخر ؟ . . . مسدس من ذلك النوع الذى يستخدمه البيض ويحفظونه فى حجرات نومهم . .

- أنا لا أطلق الرصاص على أحد من الناس .

أطلق الرجل الأسود صوت شخير معبراً عن سخطه واستيائه . . ضحك ضحكة مكتومة .

- تريد أن تقول إنك لا تدافع عن زوجتك وأولادك ؟

أبعد « بام » من أمام زوجته الحشرة الكبيرة الميتة .

- حان الوقت للذهاب .

بعد أن تحدث « بام » و « مورين » والضابط حول الحاجة إلى المطر مرة أخرى ، تبادلوا التحية معبرين عن سعادة كل منهم بلقاء الآخر . . . سأل الضابط عما إذا كان « يوليو » يعمل على راحتهم .

- «يوليو » يوفر لنا كل شىء . . الطعام وكل ما نريد .

ابتسمت « مورين » إلى « يوليو » قائلة ما يجب عليها قوله :

- نحن ندين له بكل شىء .

« بام » و « مورين » صافحا الضابط الذى توجه بكلامه إلى الرجل الأبيض كمن يعبر عن شكره لدعوته .

سأحضر لأرى بندقيتك . . وتعلمنى كيف أستعملها .

3

تحادثا فى العربة بدون أن يشركا « يوليو » معهما فى التعليق على ما حدث ، غير أن « يوليو » بدأ فى توجيه النقد :

- غريب أمر هؤلاء الإفريقيين من ساكنى القرى . . . لا يريدون مخالطة أحد من الشعوب . . . لا هذا ولا ذاك .

لاح على وجه « مورين » أنها فهمت ما يريد قوله على العكس من «بام» .

- ضابطك لا يريد أن يزعجه أحد ، لكن من غير الممكن حدوث ذلك .

- هو يتكلم كثيراً جداً .

توجسهما من الخوض معه فى الحديث أثار فى « يوليو » شيئاً من العناد .

- أخبرينى ، ماذا يمكنه أن يفعل . . . أخبرينى ؟

- هو قال لك . . . سيقاوم .

- كيف يمكنه المقاومة ؟ . . . هل قاوم عندما أجبرته الحكومة على دفع الضرائب أو على قتل بعض الماشية حتى لا تنخفض أسعار اللحوم . . . هو ضابطنا لكنه لا يبدى أية مقاومة عندما يأمره البيض بتنفيذ ما يريدونه منه . . . الآن كيف يمكنه الدخول فى معركة مع الجنود السود عندما يأتون

كما يأمرونه . . . هو رجل لا حول له ولا قوة ولا مال برغم كونه ضابطاً . . . إذا جاء هؤلاء الرجال من « سويتو » ومعهم الروس والكوبيون فسوف يأكلون الثريد ويقتلون الأبقار لأنهم جوعى . . فما الذى يمكنه عمله؟ . . . لا شىء . . . هو لا يستطيع عمل شىء سوى الكلام . . الكلام فقط .

اتجه « يوليو » بالعربة يميناً وأوقفها أمام كوخ أمه الذى أعطاهما إياه ليقيما فيه . . . غادر كل من « مورين » و « بام » العربة ، وواصل هو السير إلى المكان المخصص للعربة آخذاً معه « فيكتور » و « جينا » و « رويس » وأطفالاً آخرين كانوا قد تجمعوا حول العربة وجروا خلفها ، و « دانيال » الذى جلس فى المقعد الأمامى إلى جوار « يوليو » مرة أخرى . . . وعندما سار « يوليو » على قدميه فى اتجاه الأكواخ أعاد مفاتيح العربة إلى جيبه .

هذه هى المرة الأولى التى كان على أفراد عائلة « سميلز » أن يعودوا فيها إلى وطنهم المكون من : سرير حديدى ، ومصباح غازى ، وأكواب زجاجية، وأطباق خزفية مزخرفة وملطخة بالتراب ، وعلبة صفيح بها مسحوق اللبن الجاف ، وبعض السكر الملفوف فى أوراق صحيفة يومية .

الكوخ الذى اعتادوا العيش فيه كان فى انتظارهم ، قادمين من المدى الفسيح الذى تغمره الشمس إلى المكان المغلق المعتم الذى تسرى فيه رائحة القدم والرطوبة . . . تسللت من فتحة الكوخ حزمة ضوء وسقطت على الأرضية بالداخل . . . استلقت دجاجة فى استرخاء على ظهر الحقيبة التى تحوى كل ممتلكاتها . . . حدقت « مورين » فى الحقيبة وكأنها تراها لأول مرة، فرأت المكتوب على جانبها ، « ستاتلر هيلتون بوينس أيرس . . . البير جوسيان لورتيزومانتوا . . هيرنجراخت اوتيل كيب تاون » .

أبعد بيديه الدجاجة قائلاً :

- لا تستلقى على السرير الآن .

فى استطاعة كل منهما أن يرى الآخر الآن . . تحول بوجهه إليها : من قال إننى سأفعل ذلك ؟ . . أشعلت المصباح الغازى واشتمت تلك الرائحة التى أصبحت تميز مسكنهما الجديد . . . كانت لهما صديقة دخلت السجن متهمة بالتعاون مع السود وتأييد مطالبهم ، وعندما أفرجوا عنها قامت بإحراق كل ثيابها التى ارتدتها هناك ، لأنها لم تستطع أن تفصل رائحة الزنزانة عن تلك الثياب .

أدار مفتاح موجات الراديو وغير كثيراً من اتجاه الهوائى وبدَّلَ بِحَجَرَىْ البطارية القديمين الحجرين الجديدين . . . لا صوت للموسيقا فى كل هذا الأثير ، فرقعات وطقطقات وهدير وزئير . . . وعندما توقف صوت الضجيج للحظة سرت فى الكون تنهيدة عميقة ، استمعا إليها وقد غطت كل الأصوات .

- دعنى أحاول .

- اللمسة السحرية .

الصندوق الأسود الذى لن يحوى تسجيلاً للكارثة التى حلت بهما بسقوطهما من ضاحيتهما بالمدينة إلى البرية ، أصبح الآن فى حوزتها . . . أدارت مفتاح الموجات وحركت الهوائى .

- عليه اللعنة !

أعادته ثانية إلى « بام » الذى علقه فى مسمار مثبت فى الحائط الطينى بالكوخ كان قد عُلق فيه من قبل فأس أو جاروف .

أحدهم يدندن بأغنية يحرك جسده على إيقاعها . . طفل ينتحب فى مستقره فوق ظهر أمه . . . أصوات عجائز وصيحات شباب فى حشد من الناس يمثل لبقية أهل البلدة الصحيفة التى يستقون منها الأخبار ، والأرشيف الذى يمدهم بالمعلومات ، والمسرح يقدم لهم الأغنية والرقصة .

- لو أمكننى الاستماع جيداً إلى إرسال الراديو ، حتى لو كان الإرسال باللغة البرتغالية فسيكون فى مقدورى تبين بعض ما يدور الحديث حوله .

عبَّرت ملامح وجهها عن عدم ثقتها فيما يقول :

- كم كان طول موجة تلك المحطة الإذاعية ؟ . . . أتذكرين ؟

- لقد جربت كل الأطوال الموجية بنفسك .

- ربما العيب فى جهاز الراديو . . . يمكننا استعارة راديو « دانيال » عندما يعود . . . العربة هناك ولا أدرى أين ذهبوا .

- لم تعد يعتريها أى قلق على أطفالها ، فبعد أن تطعمهم يعرفون كيف يعتنون بأنفسهم مثل الأطفال السود .

يروح « بام» ويجىء بخُطًى متمهلة فى الحيز الضيق الذى يشغله الكوخ ، وفى ضجر كان يضرب قبضة يده فى راحة يده الأخرى كما كان يفعل هناك عندما يتحدث عن مشروع بناء يأمل فى أن يقوم بتنفيذه . . . من الصعب تصور ما قد حدث للضاحية وطرقها ومتنزهاتها التى كانت ملتقى العائلات البيضاء . . . يقومون فى صباح السبت من كل أسبوع بجولاتهم التى يأكلون فيها « الآيس كريم » ويشترون القمصان المطبوع عليها أسماء « فيكتور » و« جينا » و « رويس » ويشاهدون معارض الصور الفوتوغرافية التى تعرض دائماً لحياة السود فى المدينة .

– نشر تقرير منذ عدة أعوان أعدته وحدة أبحاث بالكونجرس الأمريكى حول إمكانية إرسال الولايات المتحدة طائرة لإنقاذ الرعايا الأمريكيين الموجودين فى جنوب إفريقيا إذا تعرضوا لأى خطر . . . ذُكر هذا التقرير فى إحدى نشرات الأخبار التى أُذيعت فى الأسبوع الأول من مجيئنا إلى هنا . . . ألا تذكرين ؟ .

– هل استمعت إليه أنت ؟ . . . أنا لم أستمع إليه .

– طائرة لإنقاذ الأمريكيين ومواطنى دول أوربا . . . أذكر ذلك بوضوح . . . قَدَّمَ التقرير للكونجرس رجل اسمه « روبسون » . . . لا . . . اسمه « كوبسون » .

لم يكن من الضرورى أن تذكّره ، أنها وأولادهما ليسوا أمريكيين أو أوربيين ، كما لم يكن من الضرورى أن يذكّرها بأنه كان من الممكن أن يكونوا أوربيين من مواطنى « كندا » ، علماً بأنه إذا أصبح البيض جميعهم أعداءً فى نظر السود فربما يصبحون هم أوربيين فى نظر الأمريكيين .

شعرت بعينيه ترقبان أصابع يديها وهى تزيل من حوافى أصابع قدميها قطعاً صغيرة من الجلد الميت . .

– ماذا بشأن البندقية ؟

جلس القرفصاء إلى جوارها ونصف ابتسامة تعلو فمه وشعور بالارتياح على وجهه .

– لقد اعتقدت أنه سيخبرنا بضرورة الرحيل . .

أدارت رأسها بعيداً .

- ماذا عن البندقية ؟

- أيمكنك رؤيتى باعتبارى أحد المرتزقة ؟ . . . أيمكن أن يلقى جيش جنوب إفريقيا بقنبلة يدوية دفاعاً عن ضابط شرطة أسود صغير رجعى يقف ضد تحرير شعبه ؟

العبارات ذاتها التى اعتادوا استعمالها هناك فى المدينة .

- ماذا يجول بفكرك عنى ؟

عجلة الغضب بدأت فى الدوران .

- ماذا ستفعل إذا جاء من أجل درس الرماية ؟

- هراء . . بندقية واحدة . . إنها مجرد لعبة .

- ستكون هناك أسلحة أخرى كما قلت . . . قنابل جنوب إفريقيا التى تسلمها الحكومة إلى ضباطها . . . لكن إذا جاء هو . . .

استشعر للحظة قدراً كبيراً من دراما خفية تكمن فى تلك الحياة اليومية التى تمر بهما رتيبة مملة . . . حاول جاهدًا أن يستخدم ألفاظاً ليست من جنس الألفاظ التى كان يستخدمها هناك . . . أن يستخدم ألفاظاً من واقع المكان الذى يعيشان فيه . . . لكن هذه الألفاظ لا تسعفه ، فقد اعترضتهم المفردات القديمة ذاتها : تخلف الريف ، الثورة المضادة ، الفشل فى إحداث تغييرات سلمية يؤدى بالحتم إلى حرب أهلية . . . عرفت كل هذه المفردات وسمعتها من قبل ، وها هى ذى الآن ، وقد حدث الشىء الذى لم يكن فى الحسبان ، ولم يكن فى استطاعتهما مجابهته بالوسائل التى تقلل من تأثيره عليهما .

لا سبيل إلى الكلام . . . فلا سيطرة له أو تحكم على عقله أو غضبه .

- أرأيت كيف جعلنى أقود العربة إلى هناك ؟ . . أسمعت الطريقة التى يتكلم بها ؟ . . . لم يبد قليل اهتمام بالضابط . . . هو شديد الاعتداد بنفسه هذه الأيام . .

طرفت عيناها مرتين أو ثلاث مرات .

- أعتقد أن « يوليو » كان يتحدث عن نفسه .

- عن نفسه . . . كيف ؟

الآن تريد هى أن تقول شيئاً لمجرد استثارته ليكشف عن أشياء داخله ، فى الوقت الذى يطلق هو العنان لنفسه فى الإفضاء ، ولا يبخل بالكلام حتى لا يعطى انطباعاً خاطئاً .

- هو دائماً يفعل الشىء الذى يريده البيض ورجال البوليس ونحن . . فكيف لا يفعل ما يريد منه السود ، حتى لو كان عليه أن يذبح أبقاره لكى يطعم الكوبيين والروس ؟

- لكن من الأفضل أن تأتى الثورة منهم . . . من أجل شعبهم ، حتى لو كانوا فى حاجة إلى الروس والكوبيين للوصول إلى ما يريدون .

- لذا فإن « يوليو » لن يدخل فى أى من هذه الحروب المقدسة ، فهو لن يقتلنا فى حجرات نومنا . . . كذلك فهو لن يحارب من أجل بنى جنسه .

- يقتلنا فى حجرات نومنا ! . . أتعتقدين أن فى الأمر خيانة عندما قام بإحضارنا إلى هنا ؟ . . لا . .

- ما الذى سيرد على ذهن السود ؟ . . ما الذى سيفكر فيه جنود

الاستقلال والتحرير ؟ . . . هل انضم إلى السود فى « سويتو » ؟ . . . لقد أخذ العائلة البيضاء وهرب . . . الغريب أنك تتكلم وكأننا لسنا مختبئين ونخاف أن نتجاوز النهر .

– بالطبع نحن نختبىء من (ارتجافة خوف اجتاحت رأسه ، وتصلب عنقه عندما أراد أن يهز رأسه) . . . من أحداث عصيبة مؤقتة ، ومن موت لا معنى له .

– اختلط بنا وعاش معنا لخمسة عشر عاماً ، ولا شىء يحل ارتباطه بنا طالما هو على قيد الحياة . . . أليست هذه إجابة كافية نقدمها للسود الذين يخاطرون بحياتهم حتى يقوموا بتحريره منا ؟

– يا إلهى ! . . يخاطر بحياته لكى يأتى بنا إلى هنا . . . لحسن الحظ أنا أعتقد أنه لا يدرك ذلك .

– لذا . . من المستحسن أن نذهب .

كانت تنظر إليه بعيون لا حياة فيها : أنت لا يمكنك أن تكون أحد المرتزقة . . . وهو لم ينضم إلى شعبه فى المدينة !

وجهه الضارب إلى الحمرة ممتلىء بالتجاعيد . . . وعيناه غاضبتان .

– أين ؟ . . . أين ؟

سمع كلاهما فى اللحظة نفسها أصوات اقتراب أطفالهما . . . لكنها لا تريد أن تمكنه من تحاشى النتيجة المنطقية لسؤاله ، فعندما كان « رويس » يقفز فرحاً بفوزه بسباق الجرى بادرته قائلة :

– كيف ؟

الفصل السابع



1

كانت النسوة فى طريقهن إلى تنقية المساحات الخضراء المزروعة من الأعشاب الضارة ، وليس إلى جمع أوراق النبات من أجل الطعام أو العلاج، كما فهمت المرأة البيضاء عند مشاهدتها المنجل فى يد المرأة العجوز بسلاحه الفضى الأملس الذى يشبه لسان أفعى ، والذى جِىءَ به من الكوخ الذى يحتفظ فيه بالمحراث وبعض سلاسل حديدية وقوائم خشبية .

على ظهر « مارتا » طفلها الذى لم يتجاوز العام الأول من عمره ، وفوق رأسها وعاء خزفى منقوش بداخله مدية صغيرة وزجاجة قديمة مملوءة بمزيج الماء وأوراق الشاى . . . وببعض كلمات من اللغة الإفريكانية التى جاء بها رجال القرية أثناء العمل بالمناجم وبالمدينة ، ومخالطتهم لفقراء البيض نصف المتعلمين ، كانت تتحدث « مارتا » مع المرأة البيضاء موضحة لها الفرق بين أوراق العشب الضار التى تستطيع الأبقار تمييزها ولا تقترب منها، وبين أوراق نبات تفيد فى تغذية أطفالها .

راحت المرأة العجوز تحدق ببصرها الذابل فى وجه المرأة البيضاء التى كثيراً ما يؤكد « يوليو » أنها فى المدينة غير التى يشاهدونها فى الكوخ ، تلك العجوز التى لم يسبق لها أن عملت فى خدمة البيض إلا من خلال عملها ضمن

مجموعات النسوة اللاتى يقمن بإزالة الأعشاب الضارة من حول سيقان النباتات المزروعة بالحقول .

حان وقت جمع أعواد البوص لبناء كوخ والدة « يوليو » بدلاً من كوخها الذى اُنتزع منها لسكنى المرأة البيضاء ، فالجو غير رطب ، ولا يشكو جفافاً أو ارتفاعاً فى درجة الحرارة .

قالت « مارتا » :

- الآن . . . ماذا بعد ذهابهم إلى الضابط ؟ . . .

تحدثت « مارتا » إلى زوجها « يوليو » فيما كانت تفكر فيه بعد أيام من اصطحابه العائلة البيضاء إلى الضابط ، وكان عليها أن تنتظر إجابته طويلاً كما تعودت منه دائماً عندما كانت تبعث إليه برسالة وتنتظر منه رداً . . . لكنه الآن موجود معها بالكوخ وتعد طعامه .

- يستطيع الضابط أن يوفر لهما مكاناً بقريته .

لم يجب « يوليو » ولم يكن فى استطاعتها الانتظار .

- أيكون على وشك أن يوفر لهما ذلك ؟

- لماذا يجب على الضابط أن يفعل ذلك ؟ . . من أخبرك بهذا ؟

- لم يخبرنى أحد . . . أنت أخذتهم إلى هناك .

- لذا . . فأنت ترين أن الضابط سيوفر لهم منزلاً ؟ !

- هل سألته ؟

بأصابعه ألقم فمه الطعام ، ورفع يده التى يعلق بها الفتات مشيراً إلى أن لديه شيئاً يقوله فى اللحظة التالية لابتلاع ما بفمه .

يمكنها أن تنتظر ، فربما هو يفكر فى إجابة عن كل تساؤلاتها له .

- أنت التى تسألينه ذلك وليس أنا ! . . فقد رأيتك تضعين حزم أعواد البوص خارج كوخهم . . . أقصد كوخ الأم العجوز . . . لكن لماذا تفعلين ذلك ؟

وأضاف شيئاً يعرف كلاهما أنه ليس السبب الحقيقى وراء اعتراضه .

- سيتلف الأطفال أعواد البوص وستبددين ما بذلت من جهد .

- قالت إنه قد حان الوقت وأردت أن أجمع أعواد البوص الجيدة قبل أن تحصل عليها النسوة الأخريات . . . لم أستطع أن أخبر أمك ألا تفعل ما تريد ، فأنا ابنتها ويجب عَلَىّ مساعدتها . . . ربما تكون قد نسيت أنت أيضاً بعض الأشياء .

- ماذا تقصدين ؟

تمايلت برأسها مرة أخرى ضاحكة ؛ لكى تتفادى غضبه ولم تشعر بخوف :

- تعلمت كل ما يتعلق بهم من أشياء لوقت طويل .

- أكثر من خمسة عشر عاماً . . . أول مرة ذهبت فيها كان فى عام 1965. ولم أعمل لديهم عندئذ . . . عملت بذلك الفندق فى غسيل الأطباق بالمطبخ ؛ لأنه لم يكن لدى تصريح للعمل فى ذلك الوقت مثل العاملين الآخرين ، وكنا ننام بحجرة المخزن ، ويغلق صاحب الفندق علينا الباب بالقفل حتى لا يكون فى مقدور أى منا سرقة شىء من الطعام .

كانت تهز رأسها وهى تستمع إلى قصته القديمة التى تعرفها .

- بعد ذلك - وفى الشتاء - امتدت النار من موقد زيت البرافين واشتعلت فى ذلك المكان ، ولم يكن فى استطاعتنا الخروج . . كان الله رحيماً بى .

لم يمت « يوليو » فى مدينة الرجل الأبيض ، وعاد حاملاً معه من ذلك العمل النقود ليدفعها لأبيها الذى كان قد دفع له أيضاً من قبل بعدد من الماشية . . . وأصبحت زوجته بعد ذلك وجاءت بطفلها الأول . . . وبدأت أحداث قصتها هى معه عندما كان يعود إلى كوخه مرة كل عامين ، وفى كل مرة وبعد رحيله كانت تلد له طفلاً . . . والعام القادم كان موعد قدومه لكنه أحضر عائلته البيضاء معه قبل أن يكمل العامين . . . وها هى ذى تعاودها الدورة الشهرية هذا الشهر .

نظر إليها وعلى وجهه أمارات ألم وأسى وهو يطرد من ذهنه صورة استدعتها ذاكرته لشخص آخر . . . تحدث إليها فى حماس مفاجىء بدون أن يجد وقتاً للتفكير فيما يريد قوله .

- عندما ينتهى القتال سآخذك معى لتقيمى أنت والأطفال .

ارتفعت بذقنها إلى أعلى . . . ابتسامة ارتسمت على شفتيها ، والتمعت عيناها وبدت كأنها تكتشف نفسها فى عينيه .

- أنا هناك ! . . وماذا أفعل فى تلك الأماكن ؟

تضحك ساخرة لاهثة الأنفاس :

- أنا هناك فى فناء منزلهم . . كيف أتعرف على طريقى ؟! . . ومن يدلنى إلى أين أذهب ؟ .

ثم ضحكت فى خجل واستعدت لكى تعود بأطباق الطعام ، لكن بإشارة من يده أدركت أنه لم ينته من طعامه ، برغم أنه كف عن تناوله . . . ومرة أخرى تراءى له شىء ما لم تستطع معرفة كنهه : مجموعة من النسوة جئن من منطقة الشجيرات الكثيفة فى الجزء الشمالى من المدينة وعبرن الشوارع مرتبكات متحيرات تحت وَقْع النظرات والضحكات والقهقهات التى تلاحق رءوسهن التى تشبه آنية تحمل قطعاً من النسيج الملون ، وأحذيتهن التى تشبه أحذية لاعبى كرة القدم ، ومن فوقها خلاخيل نحاسية .

استمر الضحك ، وببطء غاض الخجل من عضلات وجهها الساكنة ، وانحل بعض الشىء الرباط الذى يحكم وضع طفلها فوق ظهرها . . . بدأت أصابع الطفل فى جذب أنفها وشفتيها وأذنيها الصغيرتين السوداوين ، والخيط الذى ينتظم عدداً من الخرز الأزرق المتسخ المربوط بإحكام حول ذراعها ، وكان قد وصفه لها طبيب ليمنع عنها الحظ العاثر . .

– بعد انتهاء القتال ربما يمكنك الإقامة هنا بعد أن فقدت عملك . . . فبإمكاننا الحصول على قطعة أرض أكبر ، ونزرع المزيد من نبات الذرة بعد أن نأتى بجرار للحرث . . . وكما قال « دانيال » لن يكون علينا أن ندفع ضريبة للحكومة أو ندفع للبيض من أجل استخراج التصريح بالعمل . . ويمكنك الحصول على متجر هنا تبيع فيه الصابون والكبريت والسكر ، وأنت تعرف كيف تديره مثل المتاجر التى شاهدتها فى المدينة . . وتشترى مثل الهنود البضائع وتجلبها من هناك . . . كما أنك تعرف كيف تقود العربة بنفسك مثل رجال قريتنا الذين يقودون شاحنات ضخمة للبيض . . . ولن تقود العربّة إلا لنفسك .

العربة التى جاءت بعائلته البيضاء لم يأت ذكرها بينهما من قبل . . . وهى لم تشر إليها لتشيد ببراعته أثناء تعلمه قيادتها . . . وهو لم يقل شيئاً . فقد كان من الطبيعى أن يقوم بخدمة عائلته البيضاء باستخدامه للعربة مثلما قام بجلب الأخشاب لهم وإعطائهم كوخ والدته وأكواباً زجاجية وأطباقاً .

حاول خرق الصمت المتآمر :

- بعد توقف القتال لو تستطيعين رؤية ما قد حل بالمدينة . . . أنا كنت هناك . . . الموت يأتى من أيسر الطرق .

ومضى خاطر على صفحة الذهن . . . أن يحدث ذلك لشخص معين .

- لقد تركت نقودى ، ولم أجد الوقت لأحصل عليها . . . على أية حال كل شىء كان قد أغلق أبوابه .

فى حقيبة يعقلها بالكتف مكتوب عليها خطوط الطيران الأرجنتينية كانت قد انتقلت إليه من رَجُلِه الأبيض بعد عودته من مؤتمر العمارة فى « بوينس أيرس » احتفظ « يوليو » بحافظته الجلدية التى أعطاها له فى أحد أعياد الكريسماس ، والتى تهرأت من كثرة حملها فى جيب صدر السترة أو فى الجيب الخلفى للسروال ، وبها تصريح العمل الذى عليه أن يوقعه من مستخدمه كل شهر ، وأيضاً دفتر التوفير الذى استخرجه من مكتب البريد ، ودفتر التوفير التابع لبنك الإنشاء ، والذى يحوى مائة « رند » كانت مكافأة منهما منذ خمس سنوات بعد أن أكمل عشر سنوات فى خدمتهما .

كان رصيده فى دفتر توفير البريد يرتفع حيناً وينخفض حيناً آخر منذ أن افتتحه بمبلغ خمسة رندات كان قد كسبها من لعب القمار . . . ومن رصيده

بالدفتر سحب مرة مبلغاً من المال يعادل عمل عامين هو كل ثروته فى المدينة التى يبذل فيها حياته وأرسله إلى عائلته فى القرية عندما كانت تمر بضائقة وهو بعيد لا حول له ولا قوة ، فقط النقود التى يبعث بها إليهم من المدينة التى خبر فيها البطالة والمرض والكارثة والفقر المدقع .

لم يسبق له أن سحب نقوداً من حسابه فى بنك الإنشاء الذى حوى مائة رند والفائدة التى تُضاف إليها كل عام ، وهو النظام الذى يجعل النقود تنمو من تلقاء نفسها بدون بذل أى جهد . . . ذلك النظام الذى اخترعه البيض لأنفسهم . لم يكن قد رأى بعينيه تلك النقود التى فتحوا له بها ذلك الحساب أو لمسها بيده ، لكنها كانت هناك فى البنك محفوظة بطريقة كان يجهلها عند قدومه من القرية إلى المدينة ، وتختلف عن الطريقة التى كان يحفظ بها نقوده فى علبه سجائر فارغة يضعها أسفل حشية السرير .

- كم ؟

كانت تعرف قيمة راتبه الشهرى ولم تتحدث فى ذلك مع أحد حتى لا يكون مقصد من يريد اقتراض بعض المال . . . لكنها لم تعلم مصدر الأموال الأخرى التى يحصل عليها ، وتنتقل أحياناً إليها أو إلى أمه وينفق بعضها عند عودته إلى القرية راكباً الأوتوبيس ومرتدياً ثياباً جديدة مثل آخر مرة قبل هذه المرة الأخيرة . . . لم تعرف الطريقة التى يكسب بها تلك النقود الإضافية ، وعلى مَنْ ينفقها بالمدينة ربما كان لعب القمار فى فناء المنزل أو فى الشوارع الخلفية بالمدينة مع البيض هى وسيلته لجمع المزيد من النقود .

لقد أخبروه أن نقوده فى أمان بالبنك ومسجلة فى تلك الدفاتر ، ولكنهم لا ذوا بالفرار الآن ، وأصبحت دفاتر البنوك تلك لا تعدو كونها قطعاً من

الورق لا نفع لها ، مثل الأشياء الأخرى التى يحتفظ بها هو وزوجته وأمه وكل أهل القرية هنا فى ظلمة الأكواخ . . . ومثل الميدالية التى جاء بها أحدهم من المناجم ، وساعة « ميكى ماوس » التى أضاعها « فيكتور » فى الحمام ، وإيصال المبلغ الذى دفع فى دراجة على بعد ستمائة كيلومتر .

أعطاها رقماً تقريبياً .

– أكثر من مائة جنيه .

لم يغير الناس هنا فى القرية ما اعتادوه من إجراء حساباتهم المالية إلى العُملة الجديدة « الرند » و « السنت » ، كذلك لا يزال المتجر الهندى يضع تسعيرة شراء بضائعه بالعملة الإنجليزية القديمة .

فكر أن تصريح العمل له بالمدينة قد فقد صلاحيته ، وأن عليه أن يتخلص منه . . . قاد العربة الصفراء وهو يشعر أنه فى حاجة إلى أن يقذف بتلك الورقة إلى ماء النهر حتى تذهب توقيعاتها وتتلاشى .

2

فى وقفتها أمام الكوخ بعيداً عن عبث رجلها الأشقر بجهاز الراديو ، شاهدت رجلاً يرتدى سروالاً قصيراً قادماً من بعيد ويحمل صندوقاً أحمر فوق رأسه .

كانت قد منعت الأطفال من الاستحمام فى النهر ، ووقفوا أمامها فى عناد يحدقون بأعين نصف مغمضة فى وجه الشمس . . . ها هى ذى تسمع صياحهم وهم يتقافزون كالضفادع فى المياه البنية مع أطفال ينتمون إلى هذا المكان فاكتسبت أجسادهم مناعة ضد الأمراض التى يحمل النهر ميكروباتها . . . ربما اكتسب أطفالها الثلاثة تلك المناعة وأنقذوا حياتهم عندما تجاهلوا تحذيراتها لهم بعدم الاقتراب من النهر . . . و « فيكتور » كف عن القراءة أو قد نسيها ، لكنه لم يفقد شعوره بتفوقه باعتباره من سلالة « السوبر مان » الأبيض .

تواردت على صفحة ذهنها ما تعرفه عن أحداث الشغب التى جرت فى «ميلانو » عام 1928 احتجاجاً على نقص الخبز والغذاء . . . لم يكن ذلك الرجوع بذاكرتها إلى الوراء بسبب رغبتها فى خبز قد استعاضت عنه الأكواخ بطعام الذرة ، ذلك الخبز الذى ارتبط لديها بتلك الرائحة التى كانت تملأ منزلها بالمدينة فى اليوم الذى تخصصه « ليديا » لصنع قوالب الخبز فى مطبخها .

أى فصل من فصول حياتها لم يستحوذ على نفسها ومشاعرها كان يتبدى من صفحات الذاكرة مصادفة وتتراجع بقية الفصول فى خلفية الصورة . . حدث هذا منذ أول صباح وجدت فيه نفسها بداخل الكوخ ، وأصبحت من خلال اللحظة الحاضرة التى تعيشها تنظر إلى حياتها فى الضاحية والمنجم، ومع زوجها المهندس المعمارى .

بدأ الصندوق الأحمر فوق رأس الرجل تحت مستوى اللون الأخضر القاتم الذى يلون الأغصان الكثيفة لأشجار التين المجاورة للنهر . . قطعة من اللون الأحمر راقبتها طوال اليوم تثب وتتنقل ، فلا أحد يعرف من أى اتجاه قد يأتى منه القادم إلى الأكواخ عبر منطقة الأشجار والعشب ذات الطبيعة الواحدة، والتكوين المتجانس التى تخفى معالم الكائنات التى تتحرك داخلها . . . أمّا إذا قَدِمَ أناس من الجانب الآخر للنهر فإنهم يظهرون للعيان من أول لحظة يخوضون فيها النهر بأشيائهم التى يحملونها فوق رءوسهم .

ألقى بالتحية فى اتجاه الأكواخ ، معلناً عن نفسه وهو يسير متثاقلاً تحت الصندوق الأحمر الثقيل بأسلاكه التى تعوق حركته فى صعود الأرض المرتفعة، والعرق يتصبب منه بفعل حرارة الشمس . . . وخلف عشة الدجاج التى تملكها « مارتا » وصهريج الماء توارت صورته وغاب عن نظر « مورين » . . .

بعد الظهر تعالت أصوات تصم الآذان حملها الفضاء الممتد . . . كانت أصوات « جامبا جامبا » ، ذلك الصندوق الأحمر الذى لا يخرج عن كونه مكبر صوت يعمل بالبطارية جاء به أحدهم من المناجم ليستعمل فى هذه القرية أو تلك ، مع جهاز تسجيل وأشرطة مسجل عليها موسيقا باعتباره وسيلة ترفيه متنقلة .

لم تفلح اعتراضات الأب والأم على أن لا شىء يدعوهما للخروج لمشاهدة « جامبا جامبا » الذى لم يكن شيئاً مجهولاً لديهم . . أما « جينا » فإن أى شىء تراه فى القرية ولم تكن قد رأته من قبل تعتبره جديداً على العالم كله .

اجتمع شمل « بام » و « مورين » وأولادهما لمشاهدة الاحتفال « بجامبا جامبا » . . . تبادلا بعض الكلمات مع « يوليو » ومع آخر يرتدى ثوباً يطوق العنق والكتفين . . . بالطبيعة المرحة ذاتها التى لرجل المدينة عندما يتحدث عن حياة القرويين ، سأل « بام » عما إذا كانت المناسبة عقد قران أم انعقاد مؤتمر . . . لكن « يوليو » كان مشغولاً بجماعة من الناس تسير على مهل وفى فوضى حول الرجل الذى يطلب من شابين مساعدته فى مد الأسلاك وتثبيت السماعة على أحد قوائم الكوخ الذى يجتمع فيه أهل القرية للتحدث فى أمور تهمهم أو للصلاة ، وهو الكوخ الذى تصدر عنه أصوات غناء النسوة .

- ليس حفل زفاف . . . فى بعض الأحيان نقيم حفلاً . .

نادى رجلاً وتبادل معه الكلام والمزاح فى عبارات ذات إيقاع سريع خاطف مؤكداً على المقاطع الأخيرة للألفاظ . . . وانهالت التعليقات والضحكات من الناس الذين خرجوا من أكواخهم واحتشدوا حول « يوليو » والرجل الآخر .

المناسبة كانت « جامبا جامبا » والرجل المصاب بمرض الاستسقاء الذى كان يُرَى مؤخراً وهو يربط القدمين بخرق متسخة ويسير بين الناس متسولاً . . . واليوم بسبب ذلك الصندوق الذى يعمل بالبطارية ويصدر صراخاً وزعيقاً أصبح يدلى بأقواله فى مسائل الحياة والموت وهو جالس بينهم على كرسى بلا ظهر .

بدأت الموسيقا الصادرة من مكبر الصوت تدوى زاعقة حيناً ويخفت ضجيجها حينا آخر . . . وبدءوا فى المزاح والهزل برغم الفقر الذى يكابدونه ، وكأن ذلك الفقر هو وطنهم الذى يخوض حرباً لن يخرجوا هم منها خاسرين .

تجولت عائلة « يوليو » البيضاء بعيداً عن منطقة المهرجان ، فلم يرد الأب تناول الشراب من شعب « يوليو » كما لم يرد أن يغضبهم منه . . . والأم رأت أنه منَ غير المستحسن أن يشهد الأطفال بعض النسوة وقد أفرطن فى تناول الشراب يتمايلن فى مشيتهن إلى مكانٍ خالٍ خلف الأشجار يقضين فيه حاجتهن . .

عندما عادت العائلة البيضاء إلى الكوخ كانت البندقية قد اختفت !

3

لو أن « فيكتور » لم يكن يشاهد « جامبا جامبا » لكانوا قد اعتقدوا أنه أنزل بندقية والده من مكانها بسقف الكوخ مباهياً أصدقاءه من الأطفال السود بأنه قد سمح له باستعمالها .

واختفى أيضاً صندوق الأعيرة النارية .

بدا « بام » على الهيئة نفسها التى كان عليها عندما فقد مفاتيح سيارته هناك ، لكن « مورين » التى لاحظت يديه ترتجفان تظاهرت بأنها لم تلحظ شيئاً مثلما كانت تفعل دائماً عندما يبكى شخص ما . . الأماكن التى يمكنهما البحث فيها عن البندقية داخل الكوخ قليلة ، فإذا لم تكن موجودة فيها ولم يقم « بام » بإخفائها فى مكان آخر فمن حركها من موضعها ؟

فجأة بدا له أنه غير واثق تماماً من أنه لم يقم هو نفسه بإنزال البندقية من مكانها بعد العودة من لقاء الضابط . . . و « مورين » التى كانت دائماً تسأل للتحقق من أن جواز سفرها موجود بحقيبتها عند سفرهما معاً ، نظرت أسفل بعض الأغطية وأفرغت الحقيبة من محتوياتها .

« فيكتور » و « رويس » يثرثران .

- ربما قام أحد بحفر حفرة فى الأرض وخبأها فيها . . . هيا نحفر فى الأرض يا « فيكتور » .

فى غمرة حركتهما الدائبة نسيا الشىء الذى يبحثون عنه ، وتسابقا فى تراشق الرماد المتخلف فى طفايات السجائر . . . و « جينا » غادرت المكان خلسة مع « نيكو » فى « الروب دى شامبر » .

- هل أنت متأكد أنك لم تلعب بالبندقية ؟

- لا يا أبى . . صدقنى .

شعر « فكتور » بالإهانة لشك والده فى أنه كان يفعل الشىء الذى يعرف جيداً أنه قد فعله . . . وقال « رويس » مؤكداً على براءتهم :

- لم نفعل شيئاً . . أقسم على ذلك .

- لا أحد آخر يعلم مكانها . .

ملامح وجه والدهم جامدة . . . يلتقط أنفاسه بصعوبة كأنه كان يجرى لفترة طويلة .

وقف الأطفال فى انتظار ما سوف يقرره الكبار البالغون . . . لم يجرؤ «فيكتور » على المخاطرة بإخبار والدهم أنه لا أحد لا يعرف مكان البندقية من الأطفال السود الذين يقتحمون بنظراتهم الكوخ ، حتى والدة « يوليو » التى أعطتهم كوخها للإقامة فيه .

- « جينا » تعرف مكان البندقية .

لم يدرك الأب ما يلمح إليه « رويس » كما لم يتبين يد « فيكتور » وهى تقرص فخذ أخيه الأصغر خشية أن يضع أختهما فى موضع المساءلة .

- ألا يمكنك إبلاغ البوليس يا أبى ؟

جلس « بام » فوق السرير وهو يومىء برأسه .

لاحظت « مورين » أنه لم يجب عن سؤال الطفل . . . تحدث إلى نفسه : إذا هو لم يكن فى استطاعته أن يرفع سماعة التليفون ويحادث البوليس ، فأى شيء آخر يمكن أن يفعله ؟

نهض من فوق السرير ، اعترته موجة نشاط مفاجئة جعلته يذرع المكان جيئة وذهاباً . أدار وجهه ناحية مدخل الكوخ ، لكنه رجع ثانية إلى داخل مجال نظراتهم المحدقة . . . استلقى على ظهره فوق السرير بالطريقة التى اعتادها ، وفى الحال وبحركة مفاجئة أخفى وجهه فى السرير ، الشيء الذى لم يفعله من قبل فى مواجهة أبنائه .

نظر الأطفال إلى وجه أمهم المغلق الخالى من أى تعبير . . . عرفوا أن الوقت غير مناسب للاقتراب منها أو ملامستها ، مثلما تعلموا أن يبتعدوا عن أى قط أو كلب إذا شعروا أنه لن يستجيب لتوددهم .

ألقت بنظرها إلى ذلك الرجل الذى ليس فى حوزته شيء الآن . . . كانت المشاهد التى تجرى تحت سمع وبصر الأطفال داخل الكوخ تجتذب أنظارهم أكثر من مجموعة النسوة السمينات اللاتى يجلسن القرفصاء أمام أحد الأكواخ .

• • •

والقمر الفضى كامل الاستدارة يسبح فى السماء الزرقاء فى فترة ما بعد الظهيرة راحت « مورين » التى لها سلطة وصلاحية التوقيع على تصريح عمل « يوليو » فى المدينة كل شهر تبحث عنه فى التجمع الذى يحيط بـ « جامبا جامبا » . . . لم يكن هناك ، لم يعرها أحد اهتماماً أكثر من اهتمامهم بالكلاب والأطفال الذين يتسكعون ويشهدون الانتعاش الذى يغمر من

يكثر فى تناول الشراب ويظهر عليهم فى صورة مشاكسات مرحة وبوح حزين .

ذهبت إلى كوخه الذى يقطنه مع زوجته وليس إلى مكانه الخاص . . . كانت « مارتا » تعد طفلها الصغير ليأخذ حماماً فى وعاء من الصفيح ، ولم تلق بالاً لدموع طفلها وغضبه الذى جعله يصرخ بالشكوى إلى أى شخص قادم لينقذه من الماء والصابون . . . أشارت « مارتا » إلى عدم معرفتهم بالمكان الذى يوجد فيه « يوليو » دون أن ترتفع بنظراتها إلى مستوى قدمى المرأة البيضاء وكأنهما لم يسيرا ويعملا معاً فى الحقول . . . وأم « يوليو » فى جلستها أسفل الثياب المعلقة بالقرب من نار الموقد ، انحنت لتنفخ فى شعلة النار الذابلة كأنما هى حياتها التى تحاول أن تحفظها من الانطفاء .

قامت « مورين » بمساعدة « مارتا » بأن أمسكت برأس الطفل وهى تغسل له شعره . . . لم تطلب « مارتا » شيئاً من هذه المرأة البيضاء التى كان على « يوليو » أن يلبى رغباتها وهو يعمل لديها فى المدينة ، والتى يبدو أنها لا تزال ترى أن من حقها معرفة المكان الذى ذهب إليه حتى وهو هنا فى بيته . . . لم تستطع « مورين » أن تخبر « مارتا » عن سبب سؤالها عن « يوليو » ، ولم يكن ذلك بسبب حاجز اللغة ، فقد نجحا فى التفاهم من قبل .

غادرت « مورين » النسوة ونار الموقد الذابلة ، ومشت الهُوَيْنَى فى اتجاه مساحات العشب كما تعودت هى و « بام » المشى والجرى حول بنايات الضاحية تحت الأشجار الاستوائية . . . وراءها تركت شريطاً طويلاً من العشب الذى يرتفع إلى ركبتيها ، دهسته بقدميها فانحنى ملامساً الأرض .

وجدت « مورين » نفسها بالقرب من النهر الذى نادراً ما كانت تذهب

إليه إلا فى غرض خاص . . . لا شىء فى الأرض الضحلة غير آثار لأقدام وحوافر وأشجار شوكية تستطيع التعرف على أنواعها بعد جولاتها مع « بام » فى البرية وبصحبتهما كتب فى الطيور والنباتات .

بين مجموعة الأشجار الضخمة التى لم تهذبها يد إنسان ورائحة تخمر الثمار التى سقطت من فوق الأغصان وافترشت الأرض - اعتراها شعور بتلاشى الزمان والمكان وسط السكون الذى غمرها بسلامه الثقيل . . . أحست أن على عضلات قلبها أن تتوقف عن الانبساط والانقباض ، وأنها فى حاجة إلى أن تتوارى من الوجود إلى حيث تجد نفسها واقفة على أطراف أصابعها فى قاعة الرقص هناك تستمع إلى أصوات تصفيق وإطراء .

وجدته جالساً على كرسى بغير ظهر إلى الجانب الأيسر من العربة يكتب بقلم رصاص صغير فى أجندة ويحسب شيئاً ما كما تعود أن يسجل حسابات المشتركين فى لعب الورق . . . لاحظ « يوليو » أنها تعرفت على الأجندة التى أرسلتها إحدى شركات معدات البناء لـ « بام » المهندس المعمارى فى أحد أعياد « الكريسماس » . . . بدا عليهما أنهما على وشك أن يستعيدا معاً بعض الذكريات والأحداث التى جمعت بينهما .

- عليك أن تعيد تلك البندقية .

ران الغضب على وجهه واهتز صدره .

- البندقية ذهبت . . . كانت مخبأة فى سقف الكوخ .

لاحظت أنه ربما لم يكن على علم بما حدث ، لكنه لم يدهش كثيراً . . . أغلق الأجندة وبين صفحاتها القلم الرصاص .

- متى حدث ذلك ؟

- لا أعرف متى . . . بعد رجوعنا من عند الجمع المحتفل بمكبر الصوت والموسيقا ، لم نجدها .

- كيف يستطيع أحد أن يأخذها ؟

قالت فى اندفاعة مفاجئة :

- لِمَ لا يا « يوليو » . لا شىء غير إن يدخل الكوخ ونحن غير موجودين فيه ويأخذها . . . يسرقها .

- لا . . لا .

- اكتشف « بام » غيابها منذ قليل . . لكن ربما حدثت السرقة فى أى وقت آخر .

- متى كان آخر مرة شاهدها ؟

- لا يعرف على وجه الدقة . . . لكنها كانت فى موضعها بعد قدومنا من عند الضابط .

- أمتأكدة أنتِ أنها كانت موجودة قبل النوم ؟

- كيف لى أن أعرف ؟ . . . ربما سُرقت أثناء الليل .

فى الليل أنتم جميعاً نائمون فى الكوخ . . فمن يمكنه أن يأتى ؟ .

- ليس « فكتور » . . . تأكد تماماً أنه ليس هو .

- لا . . لا . . « فكتور » لطيف جداً . . . هو ولد شقى أحياناً، لكنه لطيف . . . إذا هو كان قد أخذها فإنما ليريها لأصدقائه ويرجعها ثانية .

- أين « دانيال » ؟

- دانيال ذهب .

احتد صوتها واعتراها شيء من الخوف .

- أين « دانيال » ؟

- ذهب « دانيال » ولن يعود .

ارتفعت يده وانزلقت على رقبة القميص . . القمر المستدير الفضى امتدت إليه يد القتام ، لكنه كان يلمع ببعض أشعة الشمس الغاربة . . . وشيئاً فشيئاً استعاد القمر رقته وشفافيته وأظلتهما العربة بظلها .

- ذهب منذ يومين .

- لكنك تعرف إلى أين ذهب . . . أخبرك عن المكان الذى سيذهب إليه؟

- تحدث إلى الشباب فى مثل سنه . . . ولم يتحدثوا إلى أحد فى هذا الشأن ، حتى إلى آبائهم .

- لكنه أخبرك وتناقش معك فى الأمر . . . لابد أنه تحدث إليك فأنت وهو كنتما معاً طول الوقت ، وكنت له فى مقام أبيه . . . لا تقل لى إنه لم يخبرك .

بضربة عنيفة بيدها ضربت بعوضتين كانتا على وجهها وامتزجتا بقطرات عرق فوق خدها .

- لا تسألينى عما قاله لى « دانيال » فلا شأن لى بذلك .

جلست على بقايا حائط طينى سلطت عليه الشمس أشعتها طوال اليوم .

- عليك أن تعيدها لنا .

اشتم رائحة عرقها . . . وعرف أن الطريقة الوحيدة لأن يفلت منها هو أن يبدأ فى السير ويغادر المكان الذى اعتبره مكانه الخاص منذ أن أخفى فيه العربة الصفراء بعيداً عن الأعين .

وضع الأجندة داخل جيب قميصه الممزق الذى كانت قد خاطته له «إيلين » بخيط لونه يخالف لون القميص .

- كيف لى أن آتى بهذه البندقية ؟ أين أذهب للبحث عنها ؟ . إذا كنتِ تعرفين فلماذا لا تذهبين أنت وزوجك وتأتين بها ؟

- البندقية ذهبت . . . دانيال ذهب . . . عرف « دانيال » من « بام » كيف يمسك بالبندقية ويطلق الأعيرة النارية . . . كان يستمع جيداً إلى كل ما قيل عن البنادق فى حضور الضابط .

ارتجفت رموشها وهى تنظر إليه .

- عليك أن تعرف أين تبحث عنه . . فأنت وهو كنتما معاً كل يوم .

أشارت إلى العربة :

- أنا ؟ . . . على أن أعرف من يسرق حاجاتك مثلما كنت أفعل دائماً ؟ . . . أنت تُسَبّبين لى مشاكل كثيرة حتى هنا فى قريتى . . دانيال ، الضابط ، أمى ، زوجتى . . . أنا لا أريد أن تسببى لى أية مشاكل بعد الآن .

قذف بيديه بعيداً عن جسده .

- يجب أن تعيدها .

- لا . . لا .

كان يبتسم وهو يتحدث فى هيستريا :

- أنا لا أعرف إذا كان « دانيال » قد سرق بندقيتك . . كيف أعرف ؟ . . . أنت تقولين إنك تعرفين . . لم أر أية بندقية ، ولم أر « دانيال » . . . فماذا يمكننى أن أفعل ؟

اعتراها هياج وحشى ورغبة تدمير كل شىء بينهما .

- أنت سرقت بعض الأشياء منى . . . لماذا ؟ . . . أنا لم أخبرك عندئذ لكننى أخبرك الآن . . . المقص الذى على شكل طائر ، ومطحنة جدتى .

- دائماً تعطيننى هذه الأشياء .

- أعطيتك ، ولكن ليست هذه الأشياء .

- لست فى حاجة إلى أشيائك هذه .

- لماذا إذن أخذتها ؟ . . . أنا لم أقل شيئاً من قبل ؛ لأننى كنت أشعر بالخجل من أنك تقوم بهذا الفعل .

- أنت ؟

مَدَّ ساقيه ، ووضع يديه المفتوحتين فوق ركبتيه . . فجأة بدأ فى التحدث إليها بلغته ووجهه يضطرب فى عنف . .

صوت إيقاعات موسيقية يتردد صداه من بعيد . . . الأرض يخبو لونها ، والقمر يختفى خلف الغيم . . . فهمت ما قاله برغم أنها لم تعرف كلمة من الكلمات التى تفوه بها . . . فهمت كل شىء : ما كان يجب عليه أن يكون ويفعل . . . رجولته التى كانت تتحقق جيداً فى مكان آخر ومع أناس

آخرين . . . فهى لم تكن أمه ، أو أخته ، أو زوجته ، أو صديقته ، أو شعبه .

تحدث بالإنجليزية عما يتصل بكل ما هو إنجليزى :

- ذهب « دانيال » مع أولئك الرجال مثلما يحدث فى المدينة . . . التحق بهم . . . ربما من أجل ذلك كان فى حاجة إلى البندقية . . . ذهب ليقاتل هؤلاء الأجانب الذى يخافهم الضابط : الكوبيين . . . لقد أخذ ما كان له الحق فى أخذه .

أمامها هو برأسه المألوف الذى قام أحد الفلاحين بقص شعره تحت شجرة . . . بفمه العريض يحده الشارب من أعلى . . الأبيض فى عينيه والأسود لون بشرته . . الآن أمامها هو فى مستوى الأرض ، وضوء السماء يغمر الفضاء من حوله .

معاً فى هذا المكان الخرب الذى يشى بخلوه من بنى البشر . . . إلى جوارهما قطعة من الآلة الصماء . . . كلماتها تتناثر كالأشلاء على الأرضية الطينية كالدم المراق . .

أتكون هذه الأرض مقبرة لهم . . . تزحف على البشرة البيضاء حمى هى أقرب إلى الوجد والانجذاب الصوفى . . . يدخلها شعور بالراحة والروعة والازدراء . . . قالت له الحقيقة عارية :

- أنت تربح من وراء قتال الآخرين . . . تسرق العربة الصفراء . . . لا تعرف ما قد حدث لـ « إيلين » التى غسلت ثيابك وشاركتك فى الفراش . . . تريد العربة لتقودها كقاطع طريق متخيلاً نفسك رجلاً كبيراً مهماً و إن لم يكن معك النقود التى تشترى بها الوقود . . . لم يعد هناك أى وقود

للشراء، وستظل العربة قابعة تحت الأشجار فى هذا المكان بين الأكواخ القديمة ، وستصبح بلا فائدة ، يلعب الأطفال بقطعها التى تفككت . . . سفينة غارقة أخرى مثل كل السفن الغارقة .

مساء مفعم بالرقة والشاعرية أحاط بهما . . أتراه قد حسبهما عاشقين ؟ . . . فى جلستها تحركت يمنة ويسرة ، وعادت إلى وضعها الساكن إلى جانب العربة مرتدية ثوبها « الجينز » الذى ينتهى عند الركبة وقطرات عرق فوق جبهتها تعكس شعاعاً من ضوء القمر ، وخصلات شعرها مهملة غير مرتبة .

ضحكت « مورين » . . ضربت بكف يدها رفرف عجلة العربة لتبعد الماشية عن الطريق ، وعاد رجع الصوت إليهما ثانية . . نار صغيرة أشعلت فى أول كوخ يعد الطعام للعشاء . . . وأشعلت النيران فى أكثر من مكان على صفحة الليل .

فى الكوخ كان « بام » قد جلب قناديل الذرة من الحقل ، وأعد طعام العشاء وقدمه للأطفال الذين أتوا عليه بأصابعهم . . كانوا يثرثرون عندما ظهرت بينهم . . لم يقل لها شيئاً ، ولم يسألها ؛ أين كانت ؟ وكأنها كانت موجودة معهم طوال الوقت . . لم تأكل شيئاً . . وفى ظلال الكوخ أمسكت بزجاجة الماء وأتت عليها بأكملها فى جرعات متتابعة تتضمن بعض وقفات، مثلها مثل مدمن للكحول توارى عن الأنظار وانغمس فى معاقرة الشراب . . وكانوا مثل عائلة المدمن لا تدرى كيف تتعامل معه فيدعون عدم معرفتهم بالأمر .

طائرة تحلق فوق الأكواخ فى طريقها إلى منطقة الشجيرات لتختفى خلف

الغمام . . . صوت الطائرة يمتزج بأصوات « جامبا جامبا » التى تنتمى إلى موسيقا السود فى « سويتو » و « أفينون » ، و « تمبسا » ، و « مارابستاد » ، والتى تستطيع جماعة من المقاتلين السود تنتمى إلى هذه المناطق أن تستمع إلى موسيقاها هذه من بُعد عبر الفضاء المعتم والسماء الخالية من النجوم .

بينما كانت « مورين » جالسة فوق السرير تتأهب للاستلقاء والنوم أشار « بام » إلى قدميها المتسختين . . نهضت لتغسلهما بماء النهر الموجود فى برميل يخص « يوليو » وبقطعة صابون زودَها بها « يوليو » أيضاً . . تحدثت من خلف الضوء الهزيل لمصباح زيت البرافين :

- هل كان الوضع كذلك بالنسبة إليه ؟

لم يكن من الضرورى ذكر اسمه . . فقد كان « يوليو » هناك فى رءوسهم . . . لم يكن هناك غيره .

أدركت أنه ربما فى الأمر تسوية ما . . . تذكرت اعتماده التام عليهما هناك واعتياده سؤالهما عن كل شىء : أقراص الإسبرين ، واستعمال التليفون . . . ولم يكن أى شىء يخصه فى المنزل هناك .

مصباح زيت البرافين لا يزال مشتعلاً ، لكن العيون الزرقاء كانت قد أغلقت جفونها .

- البندقية مع « دانيال » . . . أخذها لنفسه .

تحركت شفتاها بالكلمات بدون أن تتحدث بصوت . . . نظرت طويلاً إلى الجفون المغلقة .

4

غلالة ضبابية رقيقة اتشح بها المساء ، خلفت وراءها نقاءً وحيوية بددت بعضاً من رائحة النوشادر الناتجة عن مخلفات الدجاج وأعواد البوص الرطبة والنفايات التى تمتلىء بها الأرض الموحلة بالماء العطن . . . النسوة ينشرن أطوال النسيج القطنى الذى يقمن بلفه حول أجسادهن وأجساد أطفالهن الرضع . . . والشمس الساطعة تلقى بأشعتها الذهبية فوق النجيل الأخضر وحوائط الطين والثياب المبللة .

القرية تبدو فى أوج كمالها أمام عينى مصور فوتوغرافى ينظر إليها من بُعد وفى يده « كاميرا » متأهبة لتسجيل المنظر الطبيعى والمشهد الذى يجمع بين إنسان إفريقيا وطبيعتها بعد إعادة إنتاجهما للعرض فى قاعة فاخرة فى هولندا أو سويسرا .

« جينا » و « نيكو » يبتسمان فى صمت ، فصداقتهما أعمق من أن يستمع إلى حديثهما الآخرون . . . و « فيكتور » و « رويس » يفركان ما تبقى فى أصابعهما من طعام الذرة فى وقفتهما إلى جانب أعواد البوص التى أعيدت إلى موضعها ثانية بعد أن ألقى بها والدهما بعيداً . . . فرحين بصنارة الصيد التى زودهما بها « يوليو » يذهبان إلى والدهما فى الكوخ ويجذبانه معهما للصيد ، ويتبعهم فريق من الأطفال السود . . . وسرب من طيور ملونة بالأحمر

والأصفر اضطرب تشكيله يحط على أعواد العشب النحيلة ليطير من جديد، فيحلق فى المشهد الصباحى الذى يمنح الرائى شعوراً بأن الحياة جميلة وتستحق أن تُعاش .

منتصف الظهيرة . . . الشمس فى مستقرها العالى . . . والهدوء يخيم فوق مساحات العشب . . . وحدها « مورين سميلز » فى الكوخ برغم امتلاء الأكواخ بالأطفال والعجائز . . . تستشعر بداخلها تغيراً فى درجة وعيها بالأصوات والصور التى تشكل فضاء المشهد . . . تخيط « مورين » فتقاً فى قميص لأحد أطفالها كانت جلبته له من متجر « وول وورث » فأطفالها لم يرتدوا قط تلك الملابس الأنيقة على الطراز الأمريكى التى يرتديها أبناء الأثرياء البيض ، ولا تلك التى يجلبها بعض فقراء السود لأطفالهم ويدفعون فيها أموالهم القليلة .

الصوت الذى سمعته « مورين » لم يكن صوت طائرة من طائرات الاستطلاع أو ناقلات الجنود . . غرزت الإبرة فى النسيج القطنى ووقفت تحدق فى السماء . . السحب الرمادية التى تنتظر ريحاً غربية لتلقى بأمطارها قد حجبن ضياء الشمس عن الكائنات . . . عيناها تحاولان اللحاق بصوت الأزيز الذى تسمعه أذناها . . . فجأة لاحت طائرة هيلوكوبتر من بين السحب تضرب الهواء بمروحتها الدائرة وبدأت تقترب من الأكواخ .

امرأة تركض فى محاذاة « مورين » تضحك فى ذعر والطفل يتأرجح فوق ظهرها . . . علت أصوات تنم عن الخوف والروع من ذلك الشىء المخيف الذى ارتفع ثانية وتوارى خلف السحب الداكنة . . . من أسفل البطن المنتفخ للطائرة ومروحتها الدائرية تضرب الهواء فى صوت يصم الآذان . . لم تستطع « مورين » من خلال عينيها المغمضتين نصف إغماضة أن تلحظ

لونها أو ما تدل عليه حروف الكتابة المنقوشة على جسمها العريض . . . لم تتعرف عما إذا كانت تحمل داخلها النجدة والإنقاذ أم مجموعة من القتلة .

عندما شاهد شعب « يوليو » الطائرة المروحية تحلق فوق رءوسهم اجتاحهم الذعر ولم يكن أمامهم غير العَدْو على هدى . . ترك المنتفخ البطن المصاب بالاستسقاء كرسيه وسار متثاقلاً يجر قدميه . . « مارثا » وسط الزحام كانت تقف واضعة يدها فوق خصرها فى تحدٍّ . . . كانوا جميعاً قد شاهدوا طائرات من قبل ، لكنها لم تكن قط قريبة من رءوسهم إلى هذا الحد . . وكان أن جلبت الطائرة إليهم إثارة فاق حجمها كثيراً ما جلبه مكبر الصوت وتسجيلات الموسيقا .

بعد الضجيج وعلامات الاستفهام والضحك الذى تركته الطائرة خلفها، تابعت « مورين » تحليقها هناك خلف السحب وصوت أزيزها المرتفع برغم اختفائها عن الأنظار . . طوت القميص الذى كانت تخيطه بعناية ، ودخلت الكوخ لتضعه فوق السرير .

غادرت الكوخ . . حثت السير فى خطوات سريعة تاركة خلفها كومة أعواد البوص وعشة الدجاج . . ارتج جسدها وهى تهبط المنحدر ، وزادت من إيقاع سيرها لتثب متخطية بعض الأحجار فى طريقها . . تعدو فوق العشب . . تدخل منطقة الأشجار كثيفة الأغصان ، ثم تعدو فى اتجاه النهر . . أصواتهم فى أذنيها . . الرجل والأطفال يتحدثون بالإنجليزية فى مكان ما من الناحية اليسرى . . لكنها تستمر فى عدوها إلى حيث النهر . . تخلع عن قدميها الحذاء وتخوض فى مياه النهر لتتعمد . . لتولد من جديد فى مياه النهر الفاترة بلونها البنى ورائحتها النفاذة القوية كرائحة الأرض . . غطت

المياه ساقيها وفخذيها وخصرها . . وذراعاها إلى أعلى ممسكة الحذاء فى يدها .

فى المياه الضحلة على الجانب الآخر من النهر الذى لم تكن قد عبرته من قبل ، وإلى جانب شجرة التين الضخمة ، وجدت نفسها أكثر عافية وصحة . . تدس قدميها فى فردتى الحذاء وتعدو . . بقرة تتخبط فى سيرها تفسح لها طريقاً . . تعدو . . صمت يقظ من حولها وأمامها فى الفضاء الممتد حيث العشب والأشجار ومحرك عربة لا جدوى منه . . رائحة بطاطس فى قِدْر تغلى بالماء مما يدل على مطبخ ، وبيت على الجانب الآخر من الشجرة التالية . . مساحات من العشب وأشجار شوكية تطرح زهوراً ملونة . . تعدو . . واثقة من نفسها أكثر من أى وقت مضى فى حياتها . . متيقظة ، حذرة كحيوان وحيد منعزل مسئول عن وجوده . . تصغى إلى ذلك الإيقاع الذى يتردد صداه داخلها . . تعدو إليه . . وتعدو .


المؤلفة

نادين جوردي‍مر

بحصول الروائية «نادين جورديمر» من جنوب إفريقيا على جائزة نوبل للأدب لعام 1991 ، تكون إفريقيا قد حصلت على هذه الجائزة للمرة الثالثة ، بعد فوز « وول سونيكا » من نيجيريا عام 1986 ، ونجيب محفوظ من مصر فى عام 1988 ، وتكون « نادين جورديمر » سابع امرأة تحصل على جائزة نوبل فى الأدب منذ إنشائها فى عام 1901 ، بعد السويدية « سلمى لا جرلوف » (1909) ، والإيطالية « جراتسيا ديليدا » (1926) ، والنرويجية « سيجريد أوندست » (1928)، والأمريكية « بيرل بك » (1938) و « جابرييلا ميسترال » من شيلى (1945) ، والألمانية « نيلّى ساخس » (1966) .

منذ صدور مجموعتها القصصية الأولى « وجهاً لوجه » فى عام (1949) وحتى روايتها الأخيرة « قصة ابنى » (1990) ، أنتجت « نادين جورديمر » عشر روايات ، وعددًا من القصص القصيرة تجاوز المائة ، ومقالات فى الأدب والسياسة . وحصلت عبر مسيرتها الإبداعية على العديد من الجوائز فى إنجلترا وفرنسا و إيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية .

وُلدت نادين جورديمر فى 23 من نوفمبر 1923 بضاحية « سبرنجز » إحدى ضواحى جوهانسبرج عاصمة جنوب إفريقيا لأب من « ليتوانيا » يعمل بتجارة المجوهرات ، وأم إنجليزية . وعاشت نادين « فترة صباها » فى مجتمع أبيض مغلق لا مكان للسُّود فيه ، تقرأ أشعار « ريلكة » و « ييتس » وتتلقى دروساً فى الرقص والتمثيل .

فى روايتها الأولى « الأيام الكاذبة » (1953) ، تتحدث «نادين جورديمر»

عن فتاة تكبر فى مدينة صغيرة بجنوب إفريقيا ، لا تعرف شيئاً مما يدور من حولها ، وتدريجياً تصطدم بحقائق عن العالم المحيط بها كانت غافلة عنها ، وتتكشف لها أكاذيب وشرور نظام قائم على التمييز العنصرى، ويتسع مجال الرؤية أمام « نادين جورديمر » لتكتب رواية « عالم الغرباء » (1958) عن القطيعة بين السُّود أصحاب الأرض الأصليين فى جنوب إفريقيا وبين الأقلية البيضاء الحاكمة ، وعن زيف الليبراليين البيض .

ومع صدور قوانين الفصل العنصرى فى جنوب إفريقيا التى كرست للقطيعة والأنقسام والكراهية بين البيض والسود فى الستينيات ، ومن خلال النقاش والجدل مع الكُتَّاب السُّود الذين اكتسبت صداقتهم ، ازداد وعى «نادين جورديمر » بعمق المأساة التى يعانى منها سود جنوب إفريقيا ، وارتفع صوتها بالتنديد بالممارسات العنصرية ، وبالدفاع عن النخبة السوداء التى أصبح مصيرها المنفى أو السجن أو الموت .

وتتابعت روايات « نادين جورديمر » : « مناسبة للحب » (1963) ، و«العالم البورجوازى الزائل » (1966) ، و « ضيف شرف » (1970) ؛ لتكشف عن عمق الصراع العنصرى المدمر لطبيعة الروح الإنسانية ، وعن خيانة النظام القائم لقيم الحرية والعدالة والسلام .

ومع انتفاضة « سويتو » فى عام (1976) ، تنحو « نادين جورديمر » فى كتاباتها منحىً جديداً يتسم بالعداء الصريح للعنصرية فى جنوب إفريقيا ، مؤكدة فى رواياتها : « ابنة برجر » (1979) ، و « شعب يوليو » (1981) ، و « رياضة الطبيعة » (1989) على الدور الذى يمكن أن يقوم به البيض فى جنوب إفريقيا من أجل الإصلاح السياسى .

وعن السود ضحايا دولة العنف فى جنوب إفريقيا - الذين أخرجوا من

ديارهم واقتيدوا إلى أقسام الشرطة ، وضُربوا ، وأُلقى بهم خلف جدران السجن ، وعن انعدام الفهم والكراهية والقسوة وافتقاد الحب فى مجتمع منقسم على نفسه يفرز قوانين التمييز العنصرى - تكتب نادين جورديمر خبرات حياتها اليومية الممتلئة بالأحزان فى أعمال روائية غنية بالتفاصيل الدالة، والصور المضيئة ، باحثة عن إجابة تنير لها طريقها على أرض الكراهية التى لا تنمو فيها غير أشجار السموم ، فلا تملك إلا أن تقبض بيدها على جمر الإيمان والثقة بالشباب الأسود المتعلم الواعى ، وببعض الليبراليين البيض الذين لم يخونوا ما عاهدوا الناس به من انحياز لقيم السلام والحرية والعدل .

تكشف كتابات « نادين جورديمر » الروائية عن الانكسار الذى أصاب روح الرجال السود تحت وطأة التمييز العنصرى ، وعن الدمار الذى يلحق بالعلاقات بين البشر فى حياة يومية تتغذى على البغضاء والعنف .. علاقات متهرئة ، وشخصيات يتجاذبها وَضْع قائم لا قِبَلَ لها على احتماله ، ولا قدرة لديها على تغييره ، وأحداث تُكرس للقطيعة بين أفراد المجتمع الواحد ، وتفاصيل تقطع بفقدان الأمل فى الوطن .

فى رواية « شعب يوليو » (1981) التى صدرت قبل عشر سنوات من حصول مؤلفتها على جائزة نوبل ، وبعد خمس سنوات من الانتفاضة التى شهدتها شوارع وأزقة مدينة « سويتو » وامتدت حتى شملت كل مدن جنوب إفريقيا . . . فى هذه الرواية ، تروى « نادين جورديمر » عن عائلة «سميلز » البيضاء ، التى لم تجد الملجأ والحماية إلا فى الهَرَب بمساعدة خادمهم الأسود « يوليو » إلى بيته بإحدى القرى المنعزلة التى يسكنها السود الفقراء .

وعبر سطور الرواية التى تتراوح لغة القص فيها بين وصفية تعنى بسرد التفاصيل ، وتعبيرية تصويرية مشحونة بالرمز والسخرية ـ نجد الكاتبة قد جردت الرجل الأبيض من سلطته الاقتصادية وأحالتها إلى الرجل الأسود. . . فهل كانت « نادين جورديمر » ترى ببصيرتها وقت كتابة رواية «شعب يوليو » ما سوف تسفر عنه السنوات من متغيرات تجبر حكومة جنوب إفريقيا على السير فى بدايات الطريق إلى الإصلاح السياسى ؟



أحمد هريدى

- كاتب صحفى بمجلة الإذاعة والتليفزيون .

- حاصل على بكالوريوس فى الهندسة من جامعة أسيوط ، ودبلوم دراسات عليا فى الصحافة من كلية الإعلام جامعة القاهرة ، ودبلوم دراسات عليا فى النقد الفنى من أكاديمية الفنون المصرية ، ودبلوم فى الترجمة من لندن .

- صدر له :

* الحب يسألكم المغفرة (ديوان شعر) .

* كتابات فى أدب الرحلات :

- أمريكا سِرّى جدًّا .

- وردة الشمال : أيام فى استوكهولم .

كلمة إلى القارئ

الذين فازوا "بجائزة نوبل" في الآداب . هل فازوا بها عن جدارة ؟ وهل فازوا بها لأسباب موضوعية ؟

هذه السلسلة "روايات جائزة نوبل" ..

تصدر للإجابة عن هذه التساؤلات فهي لا تكتفي بترجمة أفضل روايات هؤلاء الكتّاب وأشهرها ، ترجمة كاملة وأمينة بلغة عربية رصينة وأسلوب بلاغي عصري ، ولكنها تُضمّن الترجمة مقدّمة تاريخية وافية عن الكاتب ، وتحليلية دقيقة عن فكره وأدبه ولغته وأسلوبه ورواياته ، حتى يجد القارئ والدارس والأديب الناشئ ، ما يسعده ويفيده ويلبّي حاجته الثقافية ..

من هذا المنطلق لابد من إعادة الفضل إلى أصحابه والاعتراف باستجابة ناشرنا المثقف «محمد رشاد» لهذا المشروع الطموح ثقافياً رغم مغامراته المادية في عالم النشر . والله الموفق دائماً

فتحي العشري

عربية للطباعة والنشر
٧ ، ١٠ شارع السلام ــ أرض اللواء المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨



تصميم ورسوم محمد حجي